مصطفى عطية جمعة

# شرنقة الحلم الأصفر

الرواية الفائزة بجائزة نادى القصة لعام ٢٠٠٢

رواية

مركز الحضارة العربية

رواية

# شرنقة الحلم الأصفر

د.مصطفى عطية جمعة

منشورات مركز الحضارة العربية– القاهرة – ٢٠٠٣

**الإهداء**

**إلى الذين ألقوا بي في نهر الضياء، لعل هذه دفقة منه.**

**وإلى أبي وأمي وإخوتي**

**وإلى : زوجتي وأولادي**

## ( ١ )

تطلعتُ عبر نافذة الطائرة بزجاجها السميك الكاتم لعنفوان الرياح وطبقات السحب الرمادية، أشاهد تعرجات البحر الأحمر، وخليج السويس المدبب، توحدت زرقة السماء بزرقة البحر في حدقتيّ، واشتدت الزرقة قتامة مع ولوج الطائرة في السحب الرمادية. كان مقعدي بذيل الطائرة، أستشعر اهتزازاتها بأمعائي، يتخاتل الموت في أعماقي والذاكرة تحدّر في ثنايا باطنها الأرواح التي ذابت في أعماق المحيط الأطلسي على مقربة من شواطئ "نيويورك ". كيف أفلتت الأجساد أرواحها وهي تتهاوى من الزرقة السماوية الشفافة، إلى زرقة عمق المحيط المصمتة ؟

في الجريدة اليومية المبسوطة بين يدي منذ قعودي، خبران منزويان : "تشييع جنازة فيصل الحسيني ... ؟ "، "إبراهيم غوشة قابع في مطار عمان ... "، بقايا حبر الصحافة الأسود بأصابعي، لم يتلاشَ رغم احتكاكات المنديل الورقي ذي الماء المعطر به.

ابنتي وهي مغمضة العينين تضع إصبعها في فتحة أذنها، أشاركها نفس الألم بسبب اختلال الضغط الجوي ؛ الطائرة تهتز في هبوطها البطيء، تتعاظم هيئة الموت متخذة الزرقة لونًا لها، أضغط بأناملي على طبلة أذني.

***

القرف على الوجوه، والحقائب متباطئة وهي تتتابع على سير الوصول.

- ماذا معك ؟

قالها موظف الجمرك، أقسمتُ، وألححتُ في الأيمان.

مزّق حبال الكرتونة بمطواة، نفخ دخان سيجارته في قفاي وهو يقلب سحنته إلى آخر. انكببتُ أجمع المتناثرات، وأنا أخفي ابتسامة بطعم الشماتة.

***

القاهرة سرطانية، لون أسمنت الأعمدة الخراسانية يحصر البقع الخضراء بين أعمدته، أشرتُ إليها، وقبل أن أسأل، قال شقيقي، الذي احتل المقعد الأمامي المجاور للسائق :

– قرار منع البناء على الأرض الزراعية هو الوحيد الذي لم يتخطاه أحد.

تعجبتُ بمطّ شفتيّ، أكمل سائق التاكسي :

- الطريق الدائري الجديد فضح أماكن كنّا قد نسيناها.

السيارة تهتز بسبب نتوءات الأسفلت. قلتُ :

- هل أسخنت أزمة السيولة سواد الأسفلت فتحدبت حجارته ؟!

***

تصريحات رئيس الوزراء، تتفق عليها عناوين الصحافة القومية، وتلوّنها بالأحمر :

"هناك سبعة مليارات دولار في طريقها إلينا، فعلام نشكك في متانة الاقتصاد ؟ "

"مديرو البنوك يحتفظون في عقولهم بنصف معلومات عمليات القروض، فكيف نعزلهم؟! "

***

قابلته في شارع البحر بالفيوم مدينتي، صديقي جمال، عانقني قائلاً :

- لم أرك في إجازة العام الماضي.

قلتُ : كيف حال أولادك ؟

جلسنا على سور بحر يوسف، أسهب قائلاً :

- وصلت التاسعة والثلاثين، قررت أن أعتكف في بيتي لأعرف هل من الممكن أن أكتب أم لا. كتبتُ قصصًا قصيرة، شعرت أنني ألتحم بالناس.
- ولكنك كنتَ شاعرًا !

رفع حاجبيه : آخر قصيدة كانت منذ أربع أو خمس سنوات.

- معقولة !
- أخذتني الدروس الخصوصية، حاولتُ أن أبني بيتًا لعيالي، وحاولت السفر للخليج مثلك، إلا أنهم لا يأخذون الآن حملة دبلوم المعلمين.
- ولماذا عدتَ للكتابة ؟
- بسبب غصة في صدري، توجعني كلما انفردتُ بنفسي، منعتها فلم أقدر ، وعندما أمسكت القلم، راحت الغصة.

قلت باسمًا : – وأخبار العمارة التي تبنيها لأولادك ؟

- أزمة السيولة طالت بيوت الناس، دروسي الخصوصية بالأجل، أو بالتقسيط.

## ( ٢ )

قبل يوم من سفري، أمسكتُ سماعة الهاتف، عرقي اللزج يتثلج بفعل هواء التكييف، قلتُ : هل سترسل شيئًا لأهلك ؟

- لا أعرف ...

أحسستُ بتقطيبة وجهه وهو يرد عليّ. جاءتني أصوات من حوله، وهو يرد عليهم. عاد لي ثانية :

- معذرة ! .. إنني أتصل بأهلي في مصر تليفونيًا دائمًا.
- سأقابلك في المساء.
- لن يكون قبل الحادية عشرة.

.....

كان "حافظ "منشغلاً بتناول سندويشات الشاورما، عندما طرقت باب غرفته، تعمدتُ أن أتسحب خشية أن أوقظ رفيقه بالغرفة الذي ينام مبكرًا ؛ فالعمل في البناء يبدأ في البكور قبل أن تخرق الشمس الرؤوس. قلتُ :

- ألم يأن الأوان لتسافر يا ... ؟
- الجريدة لا تعطيني إلا أسبوعين كل سنة.
- كفاية، كي ترى والديك.
- أحتاج الزواج.
- ظننتك تفكّر في ديوانك الثاني ؟
- وماذا أعاد عليّ الديوان الأول ؟ هل قرأه أحد وهو يباع بخمسة جنيهات ؟

أردف، وهو يمسح شاربه الأصفر :

- تآكلت في الجريدة، وكرهتُ القلم، وأنا منثن عشر ساعات أعيد صياغة المقالات، وأفرّغ شرائط الكاسيت.
- سافر وتزوج شاعرة.

- أريدها امرأة فقط.

***

في شرفة بيتنا المواجه لشريط القطار الذي يغزو بصافرته أعماق خضرة الحقول، يقول أخي : هل تعرف أن حجم ديونه ثلاثون مليون جنيه ؟

قلتُ : حصل على كل هذا من البنوك ؟

- ثم أشهر إفلاسه ؟
- لقد كان من أكبر المقاولين !

ابتسامة أخي : سيبيعون عزبه وعماراته وسياراته في المزاد.

- خسارة.
- قدّروا أصول ممتلكاته بسبعة ملايين فقط.
- .....
- يكون بذلك قد ربح ثلاثة وعشرين مليونًا، من صفقة واحدة.
- إن السجن في ...
- هذا إذا وجدوه هنا.

***

سيارات "إلترامكو "المعلبة كالمستطيل تتجاور في الشوارع، تحصر أرجل المشاة على أجناب الطريق، خطواتي إليهم في المقهى، بعد العناق، قلتُ :

- لماذا لا تقام ندوتكم الأسبوعية ؟

قال عبد المعطي : قصر الثقافة سيتم افتتاحه.

- ولكنه يعمل منذ سنتين ؟
- نعم، ولكنه لم يفتتح رسميًا.

طلبتُ شايًا ثقيلاً، ابتسم عبد المعطي وهو يتأمل كرشي :

- الخليج كله خير.
- أنا أعمل مدرسًا وصاحب رسالة هناك.

قال يوسف : – تجربة عبد المعطي في السعودية أضاعت كرشه.

تساءلتُ : ومتى سيتم الافتتاح للقصر ؟

- قريبًا، جدًا.
- ولماذا لم يعلنوا عن الموعد ؟
- الأمن العام يتطلب السكوت دائمًا.

ناولني "يوسف "جريدة، من عنوانها عرفت أنها من تراخيص صحف "قبرص "، كانت صورة أدباء الفيوم يجلسون على سور القصر، وتعليقات هازئة أسفل الصورة عن السياسة الثقافية، وغمزات إلى عدة شخوص.

***

سرتُ أمام مبنى قصر الثقافة، يواجه محطة السكة الحديدية، تنبهت إلى بنائه الذي اتخذ شكل الهرم المقلوب، إذا كانت قاعدة الهرم بهيكلها المعدني تشمخ كسطح للقصر، فهل غاصت قمة الهرم في عمق المسرح أسفلها؟

انتبهتُ للوهلة الأولى لبوابات أصحاب "الفراشة "التي احتلت نواصي الشوارع حول القصر، تعجبت عندما رأيت البعض يفكها.

قال عبد المعطي لي في الهاتف :

- لا تتعجب، لهم شهران ينصبونها ويفكونها، ألم تسمع الحكمة القائلة : حراسة الشخصيات تتطلب الخداع ؟
- لقد رصفوا الشوارع حول القصر ونظفوا حيطانه ؟

- الحقيقة أنهم اتفقوا مع شركة نظافة على رعايته طيلة أيام الزيارة فقط، وسيشغّلون المصعد أيضًا.

في القناة السابعة، يقول المحافظ : "... قررتُ أن أجعل شكل قصر الثقافة شعارًا للمحافظة، ... وهو بالفعل سيكون بؤرة إشعاع في شمال الصعيد بأكمله ..."

في خبر على القناة الأولى : "قرار جمهوري بتعيين عشرة محافظين جدد " صاحبنا كان من بين ...، هل سيظل الهرم المقلوب شعارًا ؟

***

درب "الجميز "الذي يتعرج بين البيوت القديمة في حي الشيخ سليمان، توقفت أمام بيته بحوائطه العريضة بفعل الطوب المتراص وقطع الأخشاب تبرز من ثناياه، الوقت قبل المغربية حيث الاحمرار عنوان أشعة الشمس ، طرقتُ باب بيته، فتح ابنه الصغير، رائحة البرودة المتسربة من السقف الخشبي تتلقفها حبات العرق بوجنتي، سألته :

- أبوك هنا ؟

– بابا نائم، سأخبر أمي.

جاءني صوتها مرحبة من وراء أحد الأبواب بساحة البيت، قادني الولد إلى غرفة الجلوس، الكنبات ذات المراتب القطنية، والكتب مكدسة في "الشيفنيرة "، التراب يكسوها. تثاءب وهو يعانقني، جلس ساهمًا،ثم همس ببطء :

– سنوات ولم أرك، الخليج غيّر ملامحك.

جلسنا متجاورين، بالريموت كنترول أشعل التلفاز، ثم "الريسيفر "، تقلبت أمام أعيننا المحطات الفضائية، توقف عند قناة لبنانية، قلتُ :

- ما أخبار قصصك يا أستاذ عثمان ؟
- لا جديد، نويت أن أجمّع قصصي القديمة في كتاب.
- وما أخبار الحاجة والدتك ؟

الحزن في عينيه، غيّرت مجرى الحديث، بقولي :

- أتذكر عندما كنت أكتب قصة جديدة أسرع إليك لتسمعها ؟
- آه، نعم.

قلّب حتى استقر على الفضائية المصرية، همس :

- المباراة بين ... ألا ... ؟

## ( ٣ )

حينما جاء "فيصل الحسيني "، سألوه على سلم الطائرة :

- .. السبب في حضورك ؟

مبتسمًا أجاب:

- سأحضر لجنة مقاومة التطبيع في الخليج.

- هل ستطلب إعانات لسلطة الحكم الذاتي ؟

بنفس الابتسامة :

- الإعانات مقررة منذ مؤتمر القمة العربي الأخير.

- هل ستبحثون في عودة العلاقات الممزقة ثانيةً منذ غزو العراق ؟

ضاقت الابتسامة :

- الملفات المفتوحة تفرض نفسها في أي حوار .

***

كنت حاضرًا وهم يتهامسون في جلستهم بديوانية صديقي "سليمان الحربي "، قال أحدهم وقد خلع عقاله، وتمددت رجلاه باسترخاء، ناظرًا إلى التلفاز التي تتابعت محطاته بسبب تلاعب أحدهم بالريموت بطريقة عصبية، قال :

- العرب لا تهبط طائراتهم إلا طلبًا للمساعدات منّا.

وقال آخر :

- "عرفات "خان القضية، مثلما خاننا وقت الغزو.

قلتُ :

- القضية لا يمتلكها عرفات..

- وهل يمتلكها فيصل الحسيني ؟

يبدو الصمت منجاة دائمًا، فاكتفيت بأن سحبت المسندة الإسفنجية من خلفي، لتغوص يداي في الإسفنج البارد.

***

في اجتماع مجلس الأمة، صاحوا به :

- موقف المنظمة وقت الغزو العراقي لا ننساه.

قال فيصل : اعتذرنا.

- كنّا نهر المال لكم ولشعبكم.

قال : دماء الأطفال تتفجر على شاشات التلفاز يوميًا.

خلع أحدهم عقاله، وهب فيه :

- ارجعْ من مكان مجيئك.

كان صديقي "حافظ "حاضرًا الجلسة، كتب في تعليقه الذي أرسله إلى صحيفته:"اكتفى السيد الحسيني بإطراقة رأسه، وراح يؤكد على متانة العلاقات، وعمق الجذور وفوائد التعاون المشترك، وحينما رفعها ثانية، كان الجميع يتهامسون في ثنائيات"

***

جاء في التقرير الذي بثته الفضائيات عنه :

"من مواليد العراق، فوالده هو الشهيد عبد القادر الحسيني، بطل معركة القسطل التي أنقذت القدس الشرقية من السقوط في يد اليهود ".

***

حينما عاد فيصل الحسيني إلى فندقه، ظلّ جالسًا في الردهة مع أعضاء لجنة مقاومة التطبيع، يستمع منهم إلكلمات المجاملة والاعتذار، شكّل وجهه علامة استفهام، التقطتها الأوجه الصحفية المحيطة به، وترجمها أحد المراسلين الأجانب بقوله :

هل الابتسامات الدبلوماسية تخفي المشاعر المستقرة بالنفوس ؟

***

في التقرير المتلفز :

"كان الفقيد يعاني من الربو وبعض أزمات الشريان التاجي بالقلب "

***

صعد فيصل إلى غرفته، شكر مرافقه، دلف الغرفة، بتمهل.

***

في التقرير المتلفز :

" الفقيد مسؤول ملف القدس، وقد استطاع أن يتسلل إلى الأرض المحتلة عبر الأردن، وسجّل نفسه لدى سلطات الاحتلال بأنه من أهل القدس ".

***

فكّ رباط عنقه، تضيق أنفاسه، تمدد على الفراش، أمسك بزجاجة الدواء ....

***

"لقد مثّل الفقيد المنظمة في مفاوضات مدريد "

يكمل التقرير : "إنه نجم سياسي مقبول، ومعتدل لدى المجتمع الدولي، وله احترام كبير بين ألوان الطيف السياسي الفلسطينية، خاصة لأنه مشهور بنظافة اليد.."

تأملتُ الصور التي شاركت الفضائيات المستقلة والمستأجرة والحكومية بثها، مع اختلاف بينها في الترتيب : صوره وهو يقابل الرئيس جورج بوش، وصور أخرى مع كلينتون، وأولبرايت، نفس الابتسامات التي يضعونها في مقدمة لقاءاتهم دومًا.

لقطات مطولة من الفضائية الفلسطينية لجنازته، الآلاف تشيعه بالهتافات.

لم أعرف طعمًا للحزن، وأنا أطالع بتبلد الجثمان الملفوف بعلم فلسطين.

***

لم تستطع يده أن تصل بالدواء إلى شفتيه، حشرجة الصدر، وخرخشة الأنفاس.

***

- يبدو أنه نائم، رنين الهاتف بلا رد.
- فلننتظر قليلاً.

.....

قال سكرتيره : – الهاتف لا يرد.

اتجه نحو غرفته، الطرقات المتواصلة، الباب يُفتَح.

الجسد المسجى على الفراش، تمعنوا فيه، زرقة الوجه تفوح منها البرودة.

***

قال ياسر عرفات، بارتعاشة شفته السفلى الآلية :

- فقدتُ صديقًا عزيزًا، أشك في وفاته بسبب تشممه لدخان القنابل المسيلة للدموع في القدس، حينما كان يسير في مظاهرة منذ أيام ضد الاحتلال الإسرائيلي.

***

سمو الأمير يرسل برقية تعزية لياسر عرفات، مع الطائرة الخاصة التي أقلتْ الجثمان.

علّقت وكالات الأنباء العالمية :

"أول برقية منذ عشر سنوات مع السلطة الفلسطينية "

تحليل إخباري : "ستكون البرقية بداية لمصالحة حقيقية "

قلتُ للأصدقاء في الديوانية :

المشكلة التي لم يفهمها هؤلاء هي أنها برقية عزاء فقط.

***

في التلفاز، وأنا قابع مع القابعين أمامه :

الجثمان محاط بالآلاف في القدس ، وآلاف أخرى في غزة تشيع المتساقطين كالعادة في نهار اليوم الفائت.

وفي نشرة الأخبار :

"أزمة دبلوماسية تفجرها تصريحات ابن شقيق الفقيد الذي اتهم ال..... بأنهم كانوا سببًا في مقتله، والآخرون يردون بأن الفقيد نال كل عناية وحسن ... "

.....

خبر يومي متكرر :

طائرات التحالف الدولي المنطلقة من قواعدها في الخليج وتركيا قصفت العراق، وركزت في قصفها على ضواحي بغداد، حيث تعسكر وحدات من قوات صدام.

( ٤ )

مددتُ قدمي باسترخاء في ديوانية زميلي في المدرسة التي أعمل بها "سليمان الحربي "قال وهو سارح ببصره :

- تجربة الغزو قصمت ظهورنا، وظهري أنا بالذات.
- كيف ؟
- كنتُ قد أنهيت السنة الثالثة في كلية التربية، وكان أبي يفكّر في ألا نسافر صيف هذه السنة إلى بر السعودية عند أقاربنا هناك..، وحدث الغزو.
- كيف عاملكم العراقيون ؟
- لا أذكر إلا أن العراقيين ملأوا الشوارع، حتى الحارة التي بها بيتنا، كانت مهارتهم في حفر الخنادق بين البيوت عجيبة، حولوا بلدنا إلى خنادق.

جاء خادم الديوانية البنغالي بإبريق القهوة، ناولني الفنجان الصغير، فأخذته بيميني، رشفاتي، أكمل :

- أيام ووجدنا الدينار العراقي هو عملة بلدنا.
- لقد فررتم جميعًا.

ضحك وهو يهز رأسه كعادته :

- كل العرب يظنون ذلك، لقد بقي كثيرون، ولكن هل ستحارب الحريم والأطفال ؟
- والفلسطينون ؟
- صدام جعل البلد في أيديهم، وصرنا عبيدًا عندهم، وقال لهم : أنتم بنيتموها، وعلمتم أهلها، وستكون وطنكم وطريقكم للقدس.
- كلهم شاركوه ؟

ابتسم لأنني قبل أن أعيد الفنجان للبنغالي، هززته مرات في كفي، أي لا أريد المزيد، قال سليمان، وهو يناولني تمرة رطبة :

– لقد اعتدتَ على عاداتنا. سكت، ثم أردف :

- لم نكن نفرّق بين الطيب والخبيث منهم، لقد هربت أنا أيضًا مع أهلي.

***

غاصت أقدامي في رمال الخليج، حبيبات الرمال تلسع وجهي، سفن النفط تزدحم أمام محطة تعبئته، وبعضها ينظّف خزاناته بماء الخليج، لماذا لم يصطبغ الموج بالسواد ؟

قال سليمان وهو ينقل أقدامه بخفة فوق الرمال :

"ركبنا سيارتنا "السوبربان "، انحشر إخواني وأخواتي فيها، كانت الخادمة والسائق قد عادا لبلدهما، قدتُ السيارة مع أبي، لو ذهبنا من طريق الخفجي على ساحل الخليج، كانوا سيطاردوننا، هربنا مع غيرنا في مدقات الصحراء، رصدتنا دبابة عراقية، ظللنا نجري منها، نفذ البنزين، والحمد لله، عندما سألنا بعض رعاة الغنم الذين مروا علينا وكانوا يمنيين يرعون لأهل الإحساء ، قالوا إنكم في بر السعودية ".

***

كنا على الطريق السريع، أنصت لبعض الأغاني الخليجية الوطنية، أبرز ما في موسيقاهم هو صوت الطبول العالية، تذكرت طبول الحرب التي كانت في مقدمة الجيوش في الماضي. شدني صوت احتكاك في ماكينة سيارته، همس لي "سليمان ":

- لابد أن نمر على ميكانيكي.

انعرج بالسيارة إلى مخرج، عبر جسر علوي، ومنه إلى بيوت قديمة متناثرة، مبنية بالطوب النييء، تشرئب من أفنيتها الأشجارُ ذات الأوراق الجافة ، انحدرت أمام مخيلتي القصور والفيلات الأنيقة التي يلمع زجاجها.

المحل قديم، خلف البيوت، كان صاحبه ممددًا، مستظلاً بشجرة أمام دكانه.

سليمان من نافذة سيارته :

- كيف حالك يا عبد الجبار ؟

- زين يا عم.

- فيه صوت في ماكينة سيارتي.

نزلنا، ركب عبد الجبار السيارة، طاف بها في دائرة كبيرة، مثيرًا الغبار، قال سليمان :

- هذا أفغاني، من قبل الغزو وهو هنا.

قلبت بصري في دكانه، توجد صندلة في سقفها، قلتُ :

- هل ينام هنا ؟

- "إيهِ "، الشرطة تضايقه، ويظهر أنه مخالف في الإقامة.

أقبل "عبد الجبار "، قال :

– "خمسة دقيقة "يا عمّ، والسيارة" تصير زين ".

تمتم سليمان بكلمتين معه، ثم ضحك : –لا أحفظ من لغة الأفغان إلا هاتين الكلمتين.

لاحظ استفهامي، أسهب :

- سافرت إلى أفغانستان وقت الغزو، لأتعلم القتال، ذهبت إلى معسكرات عبد رب الرسول سياف، كانت الدبابة بدائية التي تعلمنا عليها، كنا نسكن في الجبال، وقطع الثلج تضرب رؤوسنا..، أسابيع ورجعتُ إلى السعودية عند أهلي، وعندما حاولت التسلل ليلدي للاشتراك مع المقاومة، كانت الحرب قد بدأت.

عبد الجبار : – السيارة تمام يا عم.

سليمان : لو "مو تمام "سأجعلك تسافر إلى بلدكم ثانية.

بدت خيوط قلق في عيني الأفغاني، تفرس فيه سليمان :ثم ضحك عاليًا، وأردف :

– أنا أضحك معك، أنت طيب يا عبد الجبار.

***

السيارات بألوانها المتداخلة مع لون الأسفلت تمرق على الطريق السريع، يرفع "سليمان"ركبته ؛ مكتفيًا بيد على المقود وقدم على "دواسة البنزين "، تنطلق السيارة في الحارة اليسرى تزاحم الأخريات، قال :

- كان العراقيون يعيشون في خنادق كالفئران، لايدحلون بيوتنا إلا لأخذ الأكل.
- لقد طردتم الفلسطينيين عندما رجعتم ؟

- ياسر عرفات متلون، ومشكلتنا أننا لا نعرف في السياسة إلا أن ننظر للأمر من وجه واحد، وبلون واحد.

سألته : حتى الآن ؟

- هذه عقلية الصحراء التي لا تعرف إلا صفرة الرمل أو زرقة السماء أو بياض السحاب أو سواد الليل.

***

في وقت الفسحة بالمدرسة، كنتُ أقف مراقبًا في ساحة العلم التي رُصِفَتْ أرضيتها بألواح إسمنتية، وقد تلونت بعدة شعارات رياضية. علا صوت طالب، لم أتبين ما قاله في البداية، ثم ارتفع صوت مضاد : ملعون أبوك، وأهلك كلهم.

- يا بن الـ..

عراك بالأيدي، أسرعتُ، دفعتني الأيدي إلى داخل العراك، جاء مدرسون آخرون، أصابتني لكمة في بطني. لم أعِ المسألة.

ضحك سليمان وهو ينظر لقميصي الممزق : بسيطة، هذه خناقة بين عيال قبيلتين.

تحسست بطني، قلتُ بقرف : عصبية قبلية.

- اتسع الشرخ في قلوبنا بعد الغزو.

***

طرق الباب عليّ في صباح الجمعة، فتحتُ، هتفتُ به :

– غير معقول ! سليمان باشا..

– البيه والباشا في بلدكم..، نحن هنا أخ وعم وشيخ. المهم، هيّا معي.

- إلى أين ؟
- سنذهب إلى خيمة رفاقنا في البر، فصل الربيع بدأ.

انحرف بالسيارة من الطريق المرصوف إلى الرمال، كان يحفظ دروبها جيدًا، السيارة تمرق بين كثبان الرمل بسهولة، بعض الكثبان مكتسٍ بطبقة من المازوت، حتى لا تثور رماله عندما تهب رياح "الطوز "، وتدوّره في الهواء، فيتراكم فوق آبار النفط، السواد والاصفرار يثيران الغثيان. أنابيب النفط الخام بقطرها المحدود، ولونها الضارب للسواد تتسلل بين قمم الكثبان، ثم تغوص في أعماق الرمال.

سور من الأسلاك الشائكة، وعليها لافتات تحمل عبارة واحدة :"احترس منطقة ألغام "، أشار سليمان نحوها :

– هذه بعض مخلفات كلاب صدام.

لم أنطق، واستمر في السير، قال :

– انظر، هذه مقبرة.

أسلاك شائكة أخرى، وبها بقايا دبابات ومدافع، ولافتة :"ممنوع الاقتراب ".

سألته : لمن ؟

- للعراقيين، يقال إن أوناش أمريكية وبريطانية دفنتهم أحياء هنا، في خندق كبير، بعدما رفضوا الاستسلام لهم.

لاحت الخيام متفرقة، اقتربنا من إحداها، كان عدد من الشباب يدوّرون الكرة بين أقدامهم، التحيات السريعة، جلسنا بينما أحد البنغاليين

يتعهد حبيبات القهوة بالغلي على نيران الحطب، تناولنا أقداح الحليب، ثم فناجين القهوة العربية، رائحة "الهيل والزعفران "تملأ أنفي.

حرّكت قدميّ حول الخيمة، الاصفرار يزدان بالخضرة، الزهور البرية برزت بين الأعشاب، قطيع غنم سارح وراء راعيه الهندي، تبدو السكينة إلا من ثغاء ضعيف، يرتكن الراعي جوار خيمة من البطاطين القديمة، يثبّت نظره في السماء، السماء ترسل قطرات تداعب الزهور البرية، النسمات عبقة، حملت رائحة النفط..، المازوت، هل تتنفس الزهور تلك الرائحة ؟ أمسكت بإحداها أتشممه، تتراص أوراقها لامعة، كانت بلا رائحة.

لبست رائحة النفط في أنفي أيامًا.

## ( ٥ )

من إعلانات الجرائد المحلية الخليجية :

"للحصول على جواز سفر + جنسية، اتصل على رقم .... "

"لمن يرغب في جرين كارد إلى : استراليا، نيوزيلاندا، كندا، الولايات المتحدة..، اتصل على هاتف ... "

"المشروع الوطني لتحسين اقتصاد جمهورية ليبيريا عن طريق تسهيلات منح الجنسية لغير أبناء الوطن..، اتصل على هاتف ...، أو قم بزيارتنا في عنواننا ... "

"سفارة جمهورية الدومينيكان تفتح ذراعيها لكل من يريد وطنًا، نعطيك الجنسية والجواز ونستقبلك بمشروعاتك على أرضنا "

***

على سطح البناية التي أسكن فيها بالخليج، أطباق الستلايت تزاحم ماكينات التكييف المركزي التي تطن بصوتها فتتجاوب الكتل الخراسانية بصداه، كان منهمكًا في ضبط الطبق المعدني، ابنتي تلهو بين قدميّ، قلتُ له :

- خيرًا يا أستاذ حمدون ؟!

رفع رأسه، حياني بضحكة صافية، يبدو أن الطنين حولنا لم يسمعه سؤالي، كررته، أجاب وهو يحرك الطبق :

- أحاول ضبط الـ B B C.

- لماذا ؟

- لأعرف أحبار أشاوس السلطة الفلسطينية، قرأت أنها ستذيع برنامجًا عنهم.

***

أطلت عيون أطفاله من الأبواب الموارية، ابتسمت وجوههم، أقبلوا يسلمون عليّ، تنقلت ابنتي بين أذرعتهم، محطة الـ B B C بمذيعها اللامع الوجه.

راح "حمدون "يترجم لي :

"شوف يا أخوي "المذيع يقول أن العم نبيل شعث يبني قصرًا على شاطئ غزة يتكلف مليونين دولار، والسيدة سها عرفات تحتكر تجارة الإسمنت في القطاع، وتربح سبعة عشر دولارًا عن كل طن "

أقبل ابنه "إياد "بعلب العصير، أمسكتُ بالماصة وبحلقتُ : إدوارد سعيد يقول :

"رائحة الفساد في السلطة الوطنية الفلسطينية زكمت أنفي في الولايات المتحدة "

حنان عشرواي تقول :"كشفت أنا وآخرين وفضحت ملفات الفساد في المجلس التشريعي الفلسطيني، فما كان من السيد ياسر عرفات إلا أن يضم كل معترض إلى وزارته، فصار عدد الوزراء ثلاثون ، منهم ثلاثة وزراء بدون حقائب.."

همس لي "حمدون ": لأن إسرائيل اشترطت عليه ألا يستحدث وزارة جديدة إلا بعد موافقتها.

قلتُ : حنان عشراوي استقالت من الوزارة.

- هذا بعدما عينوها وزيرة للتعليم العالي.

***

١٩٩٤، وبعد أوسلو : باصات متناثرة بين الأسفلت والرمال، منفذ الحدود البرية،الحقائب أخرجت أشلاءها، خمسة آلاف فلسطيني يفترشون الرمال، لفوا رؤوسهم بغترات حمراء، "خلدون "بينهم، عيونهم معلقة بمندوب وزارة الخارجية الكويتية الذي راح يقول :

- تحملناكم ثلاث سنوات من بعد الغزو العراقي، الآن لكم وطن ورئيس دولة.

أكمل : سيعطيكم عرفات الجواز والجنسية التي تريدونها، وبعدها، احرقوا كل الوثائق العراقية والمصرية والسورية التي معكم.

قال واحد وهو مضطجع : صار لنا يومان في الصحراء، لماذا ؟

المندوب : منتظرين أمر من وزارة الخارجية.

سيارات "كاديلاك "الأمريكية، تنزل منها عدة جلاليب فاتحة اللون بغتر بيضاء، ثم تظهر بدلة من صوف فخم، تغطي بشرة بيضاء، تتجه لهم، الحوار بالإنجليزية مع المندوب. ترجم البعض : "إنه السفير الأمريكي "، التفت الجلاليب حول بعضها، البدلة الصوف ترفع ذراعيها تشير إليهم، التقطت بعض الآذان ما يتداولونه "يقول السفير : قطاع غزة ملآن، واتفاقية عودة اللاجئين لم تحسم ".

تبرز الهواتف المحمولة على الآذان، أقبل مندوب الخارجية نحو الآلاف المترقبة، يقول بالعربية لهم : وافقنا على منحكم إقامات دائمة، ...، هنا.

***

بعدها تصريح لناطق من وزارة الخارجية :
"لن نمنح الإقامات لمن ليس لديه جواز سفر وجنسية "

***

قال "حمدون ": لم أجد إلا سفارة الدومينيكان التي طلبت عشرين ألف دولار مقابل الجواز لي ولأولادي.
أكمل : كل ما جمعته في سنوات وجودي في الخليج.

***

- أبي وأمي عاشوا عندكم في "السويس "بعد حرب ١٩٤٨، وهاجرنا للقاهرة بعد ١٩٦٧.
- .....؟
- يدي على كتفك وأعود إلى مصر، أختي متزوجة من مصري هناك.

سكت، نظر لي :
– رفضوا دخولي بعد انتهاء إقامتي، ومع الخصخصة رفضوا أن يعطونا حق التملك.

***

إجازة صيف ١٩٩٧، ذهب إلى عمّان، عند أخت زوجته. سار في الشوارع الواسعة، قال "عديله "مشيرًا إلى أسماء الشركات التي أطلت لافتاتها على واجهات العمارات :
- "شوف يا أبو إياد "كل هذه الشركات تشتغل للعراق.
خلدون : ناس تموت من الجوع، وناس تتربح من ورائهم.

دقائق مرّت عليهما وهما يسيران في الشارع، أوقفتهما إحداهن، لكنتها عراقية، تعرض سجائر المارلبورو وكِنْت ...، ألحّت في العرض، تبدو شابة ذابلة القسمات، سألها حمدون :

- لماذا تركتِ بلدك ؟

تنهدت، وأعطته ظهرها وهي تقول :

- أدعو ربنا أن يجعل الشرطة تتركنا في حالنا هنا وهناك.

أحكمت لف عباءتها الخابية السواد حول خصرها، وهي تعرض علبها على آخرين.

***

مظاهرات في شوارع عمّان تطالب بفصل وزير الري، الذي ترك اليهود يمتصون مياه بحيرة طبرية، فأنزلت الصنابير في البيوت مياهًا ملوثة ـ حسبما رأى بنفسه ـ بالدود والحصى غير الطين المذاب. رأى هراوات الشرطة تتعالى فوق الرؤوس.

في جريدة معارضة أردنية :"الاتفاقية بيننا وبين إسرائيل تقضي بأن نتقاسم مياه بحيرة طبرية بالتساوي، فما الثمن الذي قبضه وزير الري ؟ "

جرّت الهتافات فيما جرّت همسات باتت علنية : "انخفاض الدينار بالرغم من المعونة الأمريكية وتخفيف فاتورة الصفقات العسكرية "

***

اتخذت السيارة طريقها عبر جسر الأردن إلى قطاع غزة، العشش والأكواخ التي على شاطئ البحر المتوسط تختفي بعدما زحفت العمارات والفيلات والقصور. قال لزوجته :

- مشكلة القضية ...، أن الذي يقطف ثمارها دائمًا هم المقربون من عرفات. هذه القصور للفلسطينيين التوانسة، محمود مازن، وأحمد قريع، وشعث،..

قالتْ له : نفس الأسماء التي فرت من بيروت.

قال : ونفس الأسماء التي فرّت من أيلول الأسود في الأردن.

أفرد أقاربهم غرفة لهما، انحشر أولادهما معهما، في الصباح التفوا حول الإفطار، قال خلدون بشجن : أول مرة أذوق الزعتر من أرض فلسطين.

ردّ قريبه "أبو نذير ": يزرعونه في النقب اليهود، ويبيعونه لنا.

تساءل حمدون : سمعتُ أنك تعينت في وظيفة ؟

أبو نذير :نعم، شرطي هنا في القطاع، دربونا في الأردن، كل الناس اشتغلوا في البوليس أو حرس الشخصيات.

- والحال أحسن ؟
- رحمونا من الانتظار كل يوم عند معبر "أرينز "بالساعات، حتى نروح لإسرائيل ونشتغل في المباني أو في المزارع أو عملاء لليهود..، والحمد لله عندي محل أقمشة.

سكت ثم تكلم بصوت مبحوح :

- عياش ...، هل تذكره ؟ يحيي عياش الشهيد، استشهد في البيت المجاور لنا، بسبب ابن عمه .

***

خبر عاجل في ٢١ مايو ٢٠٠١ :

"قوات الأمن الأردنية تكبح مظاهرات صاخبة مناصرة لانتفاضة شهداء الأقصى الثانية ومطالبة بطرد السفير الإسرائيلي، وقد انطلقت المظاهرات في جنوب الأردن وفي العاصمة، وقد تعاملت معها الشرطة بشكل عنيف "

وفي النشرة المفصلة :

"وزير الداخلية الأردني يعتذر عما حدث، ويؤكد أن المتظاهرين لم يحصلوا على إذن مسبق من السلطات ".

***

علق مطعم في عمّان لافتة عليها : "ممنوع دحول الكلاب واليهود "

## ( ٦ )

اتصلتُ به في المنزل بالفيوم، أخبرتني والدته بأنه ليس متواجدًا. تابعتُ الاتصال، وتكرر نفس الرد. قلتُ لها في المرة العاشرة :

- أرجوك يا حاجة ....، أنا صديقه إسماعيل القديم ...
- عرفتك يا بني.
- أين هو ؟
- دقيقة واحدة.. سمعتها تتحدث مع زوجته، ثم تناديه، صوت أبنائه يلهون.

جاءني صوته ضعيفًا :

- أهلاً ...
- لماذا تقولها بلا طعم ؟!
- لا، هذه أقصى مقدرة صوتية في صدري.
- عامةً، سأمر عليك في المنزل.
- بل أراك بعد المغرب اليوم عند السواقي.

***

تمشيتُ ببطء، مستمتعًا برذاذ السواقي الذي يتناثر على وجهي، جاء، كما تخيلته هزيلاً نحيلاً، استرخى في أحضاني، قال :

- أهلاً إسماعيل، متى جئت ؟ ومتى ستسافر ثانية ؟
- اشتقتُ لك كثيرًا يا "حازم "، لماذا تتهرب من التليفون ؟
- أنت تعرف أمي، تخاف أن تكون أحد الفئتين.

**********

أتذكر حينما قفز فرحًا وطربًا، وهو يعبث بلحيته الصفراء، قلتُ :

- حازم، هل كل هذه السعادة لأن اليوم أول شهر رمضان ؟!

- لقد حدث أمس يا جاهل أفندي ما حلمت به طويلاً.

- وما هو ؟

- القص مني يا صديقي القاص لا ينقل الحدث بأمانة.

تركني حاملاً دفتر تحضيره، متجهًا نحو أحد الفصول. بالأمس كنتُ منشغلاً بعدة دروس خصوصية، فلم أعرف ماذا جرى.

لمحت الأستاذ "زغلول "يتقدم تلاميذ أحد فصول الثالث الإعدادي في طريقهم إلى معمل العلوم، مشيتُ بجواره :

- كل سنة وأنت طيب.

ردّ التحية بابتسامة عريضة. قلتُ :

- ماذا حدث بالأمس ؟

عيناه متسائلتان نحوي، أردفتُ :

- حازم يرقص طربًا.

- .....

ألححتُ عليه، انصرف إلى ترتيب الأولاد حول مناضد المعمل، ثم أقبل ناحيتي هامسًا:

- قُتِل "أحمد مجدي "بالأمس.

بُغتّ، كان يظن نفسه من عتاولة ضباط أمن الدولة، ولا يزال العمر والمستقبل أمامه ، أكمل "زغلول ":

- الصمت أبلغ هنا، فالمدرسة كلها أعين، اذهب إلى ميدان النافورة.

حاولتُ المرور في عودتي،كانت السيارات الزرقاء الكبيرة والصغيرة تقف في مداخل الشوارع المؤدية للميدان، أحسستُ بالرهبةُ، فالهراوات والخوذات المعدنية والدروع تتحلق في دائرة حول هيكل معدني منطفئ اللون.

على مائدة الإفطار في أول رمضان، النفوس تزدرد الطعام صامتة، تطلعتُ إلى والدي، قال : كان يسير في الشارع بسيارته، توقف أمامه موتوسيكل وعليه شابان.

شرب عرقسوسًا، أكمل :

- فهم أحمد مجدي الأمر، اندفع بسيارته نحوهم، رماهم أرضًا، أخرج أحدهم مدفع رشاش، وأفرغه في جسده.

قلتُ مستنتجًا : أمسكوا بهما بالطبع.

نفى بهزّة رأسه، وقال :

- قفزا في البحر، وسبحا ودخلا تحت الجسر ولم يظهرا.

شعور بالسرور في أعماقي، أنكرته بقولي :

- إنها نفس بشرية رغم كل شيء.

***

في المساء، تعمدتُ المرور بميدان النافورة : مصباح مستطيل شديد الإضاءة معلق فوق أحد أعمدة النور، يغرق ما بأسفله في محيط من اللون الأصفر، بدلات سوداء على عساكر يكررون جملة "امشِ بعيدًا ".

وقفتُ على سور البحر : سيارة بيضاء، عجلات الموتوسيكل تداخلت مع مقوده، والتحمت بمقدمة السيارة، بقعة دماء جافة على الإسفلت المترب.

- لماذا تبحلق بهذا الشكل ؟

ترددتُ، كان أنيق الملبس، ذا وجه يمتلىء ببثور منطفئة، قلتُ :

- أتفرج ...، أنا ... حزين على الموقف.

الشك بعينيه، حملقته الصامتة كانت كافية لتجعلني أسحب قدميّ.

"هل أصدقتُ القول مع ذاتي ؟ "

***

تعمدتُ المرور ثانية في أوبتي الليلية، من الضفة الأخرى من بحر يوسف، أشاهد البقعة الضوئية، اصفرارها يغزو أعماقي.

دفعني بقوة، انكفأتُ، لمحته : ملتحيًا كان، ببدلة تصل إلى ركبتيه، اعتلى دراجة بخارية ثم انطلق في الشارع الخاوي من المارة. يركضون وراءه : بدلات سوداء، وكاكية ... مشيت بهدوء، أقلّب محجري عينيّ، ملصق أبيض على جدران البنك الأهلي:

"نساؤنا سارت وسط القرية بقمصانهن، وكان مجدي يقهقه ضاحكًا "

*********

... رذاذ مياه السواقي يلسع وجهي، ويرطب شعر حازم. حلق لحيته، بانت وسامته.

- هل مازالوا يطاردونك ؟

قال : اسمي مدرج في قوائمهم، والاستدعاءات من فترة لأخرى.

قلتُ مهونًا :

- أمر مألوف.

ابتسامة ساخرة على شفتيه :

- هكذا يقولون لي في كل مرة، لقد اعتدتُ على ذلك.
- وما أخبار الحاجة والدتك ؟

صمتَ، تشاغلتُ بتناول الترمس.

**********

في الصف السادس الابتدائي، كان "حازم "من هؤلاء التلاميذ الذين أُجلِسوا في المقاعد الأمامية، بجوار البنت "هند "البيضاء الوجه. كانت أمه تراجع المعلمة يوم الخميس من كل أسبوع، نحفظ موعد حضورها، عقب الحصة الثانية، تتحدث مع الأبلة على باب الفصل، بينما يغلق حازم حقيبته، يذهب لها، تقبله بين عينيه، يتعلق في يدها.

- الولد هذا "دلوع "أمه.

قالها الولد ناصر الذي يجلس بجواري، قلتُ له :

- هؤلاء من أبناء الذوات.
- أمه وكيلة مدرسة البنات التي تلتصق بمدرستنا.
- طبعًا، هي واسطة له.

***

وقفت المعلمة في منتصف الفصل، بدانتها مفرطة :

- اسمعوا يا أولاد، ويا بنات، نريدكم أن تنتخبوا رئيسًا للفصل، من يريد أن يرشح نفسه ؟

أيدي متناثرة ارتفعت، لاحظتُ يد هند، ويد حازم.

نظرتْ الأبلة لهند :

- طلبت الناظرة أن يكون رئيس الفصل من الأولاد.

نقلتْ عينيها لحازم :

- ما رأيكم ؟ سنرشح "حازم ".

طرقات على الباب، الناظرة بهيئتها الحازمة :

- هل انتهيتِ يا أبلة من الانتخاب ؟

- نعم، ... اختاروا حازم.

دونت في ورقة بيدها.

في اليوم التالي، وفي طابور الصباح، وقف حازم بمريلته الحريرية جانب العلم المدرسي، أمسكت الناظرة بمكبر الصوت :

- جرت أمس انتخابات رؤساء الفصول، وتم انتخاب حازم المرزوقي ...، رئيسًا لاتحاد الطلاب بالمدرسة.

أمسكت بيده، وألبسته شارة خضراء علىكتفه، برزت أمه وأسرعت تقبله بين عينيه، كان يضحك بسذاجة.

***

في حصة الزراعة، اقتربتُ منه :

- حازم، مريلتك جميلة.

- هذه هدية من "بابي ".

قال الولد "ناصر ":

- وحقيبتك البرتقالي ؟

- ... هدية من "مامي ".

- وساعتك..؟

- من "خالو عمرو ".

تحلق العيال حوله، أغرقوا في الضحك.

- كل شيء هدية عندك ؟
- سنسميك حازم هدية.

***

- نريدك أن تقول للأبلة يا حازم أن تعيد اختبار العربي الشهري لأنه كان صعبًا.

نظر بسذاجة، أكمل الولد ناصر :

- ألستَ رئيس الفصل ؟

رفع حازم يده للأبلة، أخبرها بكلامه الناعم، غضبها :

- أنتم ضعاف، أغبياء.. وأنت ...

دموعه تفيض.

قال : هم الذين قالوا ...

- من ... ؟

أشار نحو ناصر ...، همس لي ناصر : ستكون علقة ساخنة.

***

في عيد الفطر، وبالقرب من شوارع حي "الأمريكان "، قابلته راكبًا دراجته، كانت ملابسه زاهية، فانلة صفراء على بنطلون "جينز "، صافحته.

- أين تذهب يا إسماعيل ؟
- إلى منتزه "فاروق "الملك بتاع زمان، وأنت..؟
- إلى "بابي "، سأقدّم له هدية العيد.

دهشتي :

- أليس في المنزل ؟ ! هل ستزوره في غرفة أخرى، ومعك الهدية ؟

بسذاجة :

- بابا وماما منفصلان، ولي أخت من أم ثانية، أنا ابن وحيد لمامي.

*********

... في لقائنا عند السواقي، كان لابد أن أعيد السؤال ثانية عليه، قال وهو يتفل قشر الترمس : إنها الآن وكيلة وزارة في محافظة قريبة.

- أراها تغيرت كثيرًا.
- بالطبع، لا تنسَ ما فعله "أحمد مجدي ".
- كنتَ مندفعًا مع "الإخوة "يا حازم.
- كنتُ ضائعًا عندما تلقفوني، كان زملائي في الكلية يقولون لي أنت ابن أمك.
- هذا ليس ...
- كنت أعيش تحت نفوذها، هي تعشق الترقية، تتباهى حتى الآن بأنها لم تغب يومًا واحدًا عن عملها.

لم أجد ما أقوله. أكمل :

- كانت تقول لي : أريد أن أثبت له أنني الأقوى وأنني سوف أصل.
- تثبت لمن ؟
- لأبي، كانا يتصارعان. وقد وضعت فيّ كل شعور تريده من الرجل.

**********

لم أصدق عينيّ، وأنا في السنة الثانية في الكلية، حازم عثمان ملتحٍ، يخفض بصره. يدخل حاملاً دفتره، منزويًا في المحاضرة. العجب في عيون صديقاته، قلن لي :

- ماذا جرى لصاحبك ؟ هل علّمته أن يستشيخ و"يتدروش "؟
- هل هي تهمة ؟
- كان لا يقف إلا معنا.

.....

قلتُ له، بعدما فرغنا من صلاة الظهر أمام مسجد الكلية :

- ولكنك لم تذكر لي سبب الانقلاب المفاجئ ؟
- ليس مفاجئًا، بل كان كامنًا.
- ولماذا لم يظهر في السنة الماضية ؟
- شعرتُ بالفراغ النفسي.
- دعنا نخرج من هنا.

في الكافيتريا الصغيرة، ضحكتُ عاليًا :

- عشتَ في فراغ نفسي يا دنجوان الكلية !
- تعلمتُ الكذب والسطحية منهن.
- هل تعلم أن الشباب كانوا يحسدونك ؟
- بل قل كانوا يستهزءون بي، كانوا ينادونني بالولد "الحليوة ".
- وماذا نويت أن تفعل ؟

نظر لي بتساؤل، أوضحتُ :

- الطريق ليس سهلاً. والجماعات كثيرة، بعضها معتدل، وبعضها ....

- أنا بمفردي.
- سيستقطبونك.

***

زرته في المنزل بعدها، دخلت والدته :

- إسماعيل ! انظر حال حازم.
- مثل الفل.
- طالبني بالحجاب، وزعل مني.
- الغرض طيب.

قال بعدما انصرفت :

- أمي تتمارض لكي تمنعني.
- صرتَ تجادلها في كل شيء.
- الدنيا في قلبها، حديثها كله يدور حول صراعات العمل والمنصب.
- لم تذكر لي : ما رأي أبيك ؟
- أبي مشغول بأعماله دائمًا.

*********

... تجاورنا على مقعد خارج مقهى، الشوارع تنوء بسياراتها، يلزم الصمت كعادته إذا تطلع في الأفق، قال :

- العمارات سدّت الأفق، وأخفت السحاب.
- كلما عدتُ من السفر، أجد الوجوه تزداد تقطبًا.
- هكذا يقول كل مسافر، النفوس .... تتآكل.
- هذه صوفية ؟

التفتَ لي :

- أتعرف أنني كرهت المال بسبب أبي.
- كنت أريد أن أسالك عن سبب ابتعادك عن طريق أبيك، إنك مدرس فقط.
- أمي المنصب، وأبي المال، وأنا ماذا ؟
- أنت ثمرة عمرهما.
- أعلّم التلاميذ قيمًا كنتُ أريدها من أبي وأمي.

**********

افتقدته أيامًا في الكلية، زرته في المنزل ، قلتُ :

- الكل يسأل عنك.

استرخى على سريره، قال :

استدعاني "أحمد مجدي "منذ أسبوع. دخلتُ معصوب العينين، كان يقودني مخبر لا يعرف سوى جملتين :"أمرك يا باشا "، "وامشِ يا ابن الكلب ". سمعتُ صرخات وتأوهات...

سألني عن اسمي وعنواني، ألم يكن يعرفهما ؟! لقد فضحوني في الشارع وهم يسحبونني، ووقفت البنات في حي الأمريكان يشاهدن دلوع أمه، تجره كفوف خشنة من قفاه، كي يعبأ في صندوق السيارة الغامقة.

ألقوني في صالة الاستقبال أو حبسهم خمس ساعات، كان كل من معي على شاكلتي، تعلمتُ الهدوء منهم، صلينا جماعة العصر والمغرب.

عندما أمر "أحمد باشا "بكشف عيني، قلتُ له :

- انظر، لقد ربطوا عيوني بالفانلة الداخلية.. أين حقوق ... ؟

لم أنتبه إلى أنه كان يقرأ القرآن، مفترشًا سجادة صلاة على الأرض. كانت زبيبة الصلاة تورم جبهته، ابتسم لي، أحضر مخبر ماء وعصير ليمون.

قال بود :

- أنت ابن عائلة كريمة، لماذا تسير مع هؤلاء ؟

قلتُ بحدة :

- هذا طريق الإيمان.

نظر لي بقوة، ثم قال بتمهل :

- هم فقط المؤمنون، هذه مصادرة على عقائد الناس، وأنا منهم.

قلتُ بنفس حدتي :

- الإيمان له شروط وسلوك و ...

قال :

لا تكن من الخوارج الذين يشترطون شروطًا تعجيزية لا يقدر عليها إلا قلة.. الإيمان رحب، واسع، بسيط.

سكت حازم، وراح يحملق في سقف الغرفة، أسرعتُ بالقول :

- كلام طيب، فلماذا ابتعدتَ واعتزلتَ ؟

- إنني في دوامة.

***

لم أصدق أمه التي اتصلتْ بي، وقالتْ :

- لم أعد أراه إلا فترات بسيطة.

- لماذا ؟

- إنه يسير مع مجموعة رجال بذقون.. يأخذونه مني.

قابلته في المسجد، كان وسط شباب أعرفهم، ويعرفونني. قلتُ له :

- أمك اشتكت لي من..

- أحمد مجدي قبض على عبد الونيس صاحبنا وساومه مرات كي يعمل مرشدًا.

***

طرق الباب عليه بشدة، قبل آذان الفجر، كان يتأهب للنزول، جاءت أمه مرتدية عباءة واسعة بخمار طويل. قال أحمد مجدي :

- عندما أرسل لك كي تحضر، لابد وأن تأتي.

قال حازم بحسم : لا أريد مقابلتك.

- لسنا على كيف سعادتك.

أحد العساكر :

- جمعنا كل الكتب التي وجدناها.

قال الضابط :

- قضية قلب لنظام الحكم في انتظارك.

- لم أفعل ...

- سأكسر أنفك. ثم التفت لأمه :

- سامحينا، يا أم حازم، شغلنا ومصلحة ....

بكاؤها، كان سكان العمارة يملؤون السلالم، اقتادوه، وجد أمه تسير مع أحدهم. الأمن المركزي حول العمارة، الشارع مستيقظ.

***

غرفة التحقيق، صرخات نساء تشق جوف ظلامها :

- نعم يا عم الشيخ حازم..، اسمك لايصلح أن تسبقه كلمة شيخ، نعم يا ولد ياحازم يا ابن زينات هانم.
- لاتنطق اسم أمي على..
- سأريك الوجه الآخر مني، هاتوا أمه..

ارتخى على مقعده..، هتف أن لا تحضروها.

***

عملنا في مدرسة واحدة عقب تخرجنا، رفض وساطات أمه، اعتاد تلاميذ صفه الجلوس على طاولات على شكل دائرة حوله، يقول لهم : أنتم إخوتي.

***

في اليوم الثاني من رمضان، قلتُ له :

- مررتُ بالأمس على موقع الحادث، وشاهدت السيارة والملصق المعلق.
- وما شعورك ؟
- هل كان يستحق أن ...؟
- لقد جعل نساء بلدة "أبو نعمى "يمشين بقمصان ... هل كنتَ تريد أمي مثلهن ؟

قلت : له خمسة أطفال وزوجة.

***

جاء في الصحافة القاهرية في الأيام التالية للحادث :

"الرائد أحمد مجدي من خيرة ضباط إدارة أمن ...، منذ أسابيع تلقّى تهديدات في هاتف منزله، وفي هاتف العمل، في يوم مقتله : جاءه تهديد –

كما روى لأحد أصدقائه - بأن يعد نعشه، أبلغ رؤساءه في القاهرة مباشرة، نصحوه أن يغيّر طريق عودته، دار بسيارته حول المدينة، إلا أنهم كانوا في انتظاره.."

***

قال حازم هامسًا لي في أثناء التصحيح للاختبارات :

- الرجلان اللذان قتلاه محترفان في السباحة، لأن قريتهم تقع على بحيرة قارون، وهما صيادان، لذا لم يظهرا منذ قفزا في البحر واختبآ تحت الجسر.

قلتُ مستفهمًا وأنا أركّز بصري عليه :

- من أين حصلت على هذه المعلومات ؟!
- لا تشك فيّ يا صاحبي، أهل بلدنا يتناقلون ما لا يأتي في الجرائد.
- الرجلان من جماعة تنظيم الجهاد.
- المسألة صارت ثأرًا شخصيًا.

***

علّقت إذاعة لندن على النبأ قائلة :

"الحادثة الأولى من نوعها في وزارة الداخلية بمصر، حيث إنه أول ضابط يقتل على يد ....، وهو حادث يعبّر عن مشاعر الناس ضد التوجه الحكومي ".

وعندما توجه مراسلها بالحديث إلى رئيس الهيئة العامة للاستعلامات، ردّ عليه بحدة :

– أتعجب من أنك تتحدث بطريقة صفيقة عن مشاعر الجماهير وأنت لا تنتمي إليهم.

***

استأذنت من المدرسة كي أنهي إجراءات جواز السفر، اتخذتُ طريق الاستاد الرياضي، الزحام الشديد يكتنف الشارع، تعجبتُ : سيارات الشرطة، العساكر بالزي الأسود، فرقة موسيقية.

بدأ عزف الموسيقى الجنائزية، الشمس تزداد سخونة، عطش الصيام، مشيتُ وئيدًا، همسات الناس الذين ساروا مضطرين وراء العربة العسكرية، بأن وزير الداخلية يتقدم الجنازة، خوفي وأنا أفضل الأمان النفسي.

***

صحيفة الأهرام :

"تم ترشيح أم الضابط الشهيد كأم مثالية في هذا العام للشرطة، وأُطْلِقَ اسمه على الشارع الذي وقع فيه الحادث ".

***

في جلستنا بالكافيتريا، صوت السواقي بآذاننا، قال حازم وهو يرتشف الشاي :

- السواقي بلا خرير.
- المشكلة أنك لم تعد كما كنتَ من قبل ؟
- المشكلة أنني في منتصف السلم، والناس في أعلاه أو أسفله لا يرونني.

وأكملَ مشيرًا نحو الناس المترجلين في الشارع :

- أشعر بقوة أنني أختصر سيرة حياة كل هؤلاء، مع فروق بسيطة بيننا.

رنت كلماته في أعماقي.

- كيف ؟

- كنتُ أريد أن أغيّر العالم، بحثت عن النقاء، فاكتشفتُ أنني قد تلوثتُ من العالم،

أريد أن أربي ولديّ على النقاء، ولكنني أخشى من العالم.

– وهل تعرف أنتَ أن النقاء الصافي موجود في فطرتنا، ولكن كل واحدٍ منا يريده نقاء على هواه ؟

أحنى رأسه موافقًا.

## ( ٧ )

ملتُ عليه في طابور الصباح بالمدرسة الإعدادية بالفيوم، وقلت :

- أستاذ زغلول، صحيح أنك ستسافر إلى السعودية ؟

تعجب بعينيه قائلاً: من قال لك ؟ ألا يوجد فم يتحمل أن تبتل فولة فيه ؟

أكملت سؤالي : وكما سمعتُ، فإنك قبلت العمل مدرسًا خصوصيًا عند أحد الأمراء هناك و ...

اضطررت للصمت، عندما سمعنا عزف موسيقى النشيد الوطني.

***

في نهاية اليوم الدراسي، همس لي :

- هل تعلم أنني لاحظ لي في السفر، وتلك هي الفرصة الوحيدة ؟

- السفر يحتاج إلى صبر.

ازدان وجهه بابتسامة، وقال :

- لي تجربة مريرة في اليمن. منذ سنوات، كانت الوزارة قد فتحت باب الإجازات الخاصة لمن يرغب، اتفقتُ أنا و "مدحت "،و "أسامة "، تعرفهما بالطبع ..

أحنيتُ رأسي، كنتُ قد قابلتهما عنده على مائدة إفطار في رمضان.

أردف :

– وسافرنا إلى اليمن، بهدف أن نتعاقد مع وزارة التربية اليمنية، وانتظرنا أسابيع، ونفد ما معنا من مال، قلنا ننتظر حتى تعلن المسابقة السنوية..، ولأن حظنا عاثر، لم تعلن المسابقة في هذه السنة.

كان التلاميذ يحيطون بنا، وتتطاير كلماته إلى آذانهم، جذبته إلى شارع جانبي، انجرف معي ودراجته في يده يجرها، قلتُ :

- وهل عدتَ ؟
- لغبائنا لا، قررنا أن نعمل في أي حرفة، وكانت الحرفة التي اخترناها هي تصنيع الطوب الإسمنتي، وأين ؟ في قرية معلقة فوق جبل.
- مشروع جيد. قلتُ له مشجعًا، قال :
- اخترنا هذه القرية لأن أهلها لا يعرفون ما هو الطوب الإسمنتي، وكذلك القرى التي حولها. وعندما ركبنا سيارة النقل التي صعدتْ بنا إلى القرية، وجدنا الدماء تنزف من أنوفنا..
- والسبب ؟ هتفتُ باستغراب.
- بسبب ضعف الضغط الجوي. المهم تحملنا، واستأجرنا غرفة، وبدأنا العمل، وأظرف شيئًا هو أن الناس كانوا يعطوننا نصف نقودنا أكلات : فول، خبز، بيض، وخلافه، وبعضهم كانوا يدعوننا لكي نخزّن القات معهم..، كانوا يقضون ثلاثة أرباع يومهم في مص القات، أسامة صاحبي صار مدمنًا معهم.

كنّا قد اقتربنا من منزله، قال : أبي وأمي في القاهرة عند أختي، لماذا لا تتغذى معي ؟

ترددتُ، فأقسم عليّ : سنكمل بقية الحكاية.

في غرفة الصالون، جلسنا، سألته :

- ولماذا رجعتَ من اليمن ؟

ضحك بصفاء، وقال :

– بسبب القرود. لقد حاصرتْ الغرفة أو العشة التي أقمنا فيها، وظلت تقفز فوق سقفها لولا نجدة الأهالي لنا.

أمام طبق أرز كبير، وبعض قطع اللحم وطبق كوسة، قال :

- عمري تسع وعشرون سنة..، كم سنة أحتاجها لكي أتزوج ؟ مكتب السفريات قبض مني خمسمئة جنيه لتسهيل السفر إلى هذا الأمير.
- هل قابلت هذا الأمير ؟
- هو الذي اختبرني أنا وآخرين، قال لي إنني لن أدرس مادة واحدة بل مادتين، قلتُ له أنا مدرس علوم فقط، قال : اختر لك مادة أخرى، لم أجد أمامي إلا الإنجليزي، المهم أنه لا يعرف الإنجليزي وبالتالي قال لي : أنت إن شاء الله ستكون معنا، ما رأيك ؟ قلتُ له : ماشي. قال : إلى أين ؟ قلتُ : ماشي خلاص. قال : إيش ماشي للمملكة أم لمصر. كتمت ضحكي، وقلت : موافق.

***

أرسلتُ له خطابًا، فجاءني الرد سريعًا، تتابعتُ خطاباتي، لم يرد عليّ إلا بخطاب يتيم، أنه بخير، والسلام.

***

في العطلة الصيفية، قابلته كان منتفخ الوجه، أمام المسجد بعد صلاة الجمعة، قال :

- شعرتُ أنك زعلت مني لأنني لم أستمر في الكتابة إليك.

قلتُ : بالضبط.

قال : كانت هوايته أن يفتح الخطابات، لن أسافر ثانية.

- .....

- هل يجب عليّ أن أدرس كل المراحل وأحل الواجبات لأبنائه وبناته ؟

كانت ابتسامته باهتة.

***

في المدرسة، سأله "حازم ":

- ما أخبار البترودولار ؟

زغلول : ماذا تقصد ؟

- الأموال السائلة باسم التمجيد للنموذج الإسلامي الوحيد المستقر في العالم، نموذج المملكة ...، هكذا تقول منشوراتهم ومجلاتهم.

- لم أرَ إلا أناسًا منشغلين بحياتهم فقط.

- المشكلة في البطون الممتلئة أنها لا تجعل صاحبها يتحرّك أو ينظر.

أكمل زغلول : وكذلك الحال مع البطون الفارغة.

## ( ٨ )

خبر عاجل، في مربع باللون الأحمر في ركن شاشة التلفاز، بثته محطة إخبارية :

"فجّر شاب فلسطيني ينتمي لحركة حماس نفسه أمام ملهى ليلي في مدينة ناتانيا، وأسفر الهجوم عن مقتل قرابة العشرين، وجرح ما يزيد عن ثمانين شخصًا "

"وقبلها بأيام انهارت صالة أفراح في تل أبيب على من فيها، وراح ضحيتها العشرات، ونفت السلطات الإسرائيلية مسؤولية حركات العنف الفلسطينية عن هذا الحادث ".

***

خبر بدون مقدمات :

"حطت طائرة تابعة للخطوط الجوية القطرية في مطار عمّان الدولي وعلى متنها **إبراهيم غوشة** المتحدث الرسمي في الأردن باسم حركة حماس الفلسطينية، يذكر أنه مبعد إلى قطر منذ عام ونصف "

"رفضت السلطات الأردنية السماح له بالدخول إلى أرض الوطن، وأصرت على عودته من حيث جاء وعلى نفس الطائرة "

وجاء رد الحكومة القطرية :

"إنه لن يعود إلى أرضنا، فهو عائد إلى وطنه الأردن، ونتعجب من موقف الحكومة الأردنية من أحد رعاياها "

***

في جريدة عربية تصدر بلندن :

".. وعائلة السيد غوشة من الفلسطينيين الذين لجأوا إلى الأردن، وأقاموا في مخيمات اللاجئين وحينما قررت جامعة الدول العربية أن تحافظ على هوية هؤلاء اللاجئين خوفًا من ذوبانهم في البلدان التي هجروا لها، قررت الجامعة أن تعطي الدول العربية التي تستقبل اللاجئين على أراضيها وثائق سفر تثبت أن هؤلاء فلسطينيون، لكيلا تتلاشى القضية بمضي الزمان، وتبقى في أزمة هؤلاء اللاجئين "

"... وقد وافقت الدول العربية المستقبلة للاجئين على إصدار هذه الوثائق، وهي : العراق وسورية ومصر ولبنان والأردن.."

"مرّت الأيام، وفوجيء العرب في أوائل الستينيات، بقرار الملك حسين بإعطاء الجنسية الأردنية لكل الفلسطينيين المقيمين على أرضه، بل وتزوج من الملكة "علياء "المتحدرة من أكبر العائلات الفلسطينية.. "

***

ألقيتُ الجريدة اللندنية جانبًا، وقلتُ للأستاذ "كمال ":

- أتعجب من تصرف الملك حسين هذا في بداية الستينيات ؟

ابتسم وقال :

- الملك حسين رجل كل المراحل والاتجاهات..

قاطعته : كيف ؟

- دولته قليلة السكان، والعنصر البدوي يغلب عليهم، أما الفلسطينيون فكانوا قوى صاعدة، فلابد من استقطابهم نحوه.
- وعشائر البدو لديه ؟

- هم أصل بلده ودعامته، لقد قاتل بهم الفلسطينيين في أيلول الأسود سنة ٧٠.

***

في مطار عمان الدولي :

الطائرة القطرية قابعة في أرضية المطار، والسيد "غوشة "في قاعة الوصول، مفترشًا الأرض، وقد تناثرت أمتعته على المقاعد. وزوجته تقف خارج المطار، لا تستطيع رؤيته، وأقاربه حولها.

وفي النشرة الإخبارية لإذاعة عمان :

"لن تغادر الطائرة القطرية مطارنا إلا إذا حملت معها إبراهيم غوشة التي جاءتنا به "

وفي رد الحكومة القطرية :

"ستغادر الطائرة المطار، ولن تعود بالسيد غوشة "

وقال "خالد مشعل "في برنامج بمحطة الجزيرة :

"هذا حقنا في العودة إلى بلادنا، لأننا نحمل جوازها وجنسيتها، والأستاذ غوشة له عام ونصف لم يرَ أولاده وزوجته ".

***

في مذكراته الشخصية، قال أحد مستشاري الملك حسين السابقين :

"لقد تحدثتُ مع الملك بشأن إيقاف سياسة الأردنة التي تنتهجها حكوماته المتعاقبة، فالمواطنون الأردنيون من أصل فلسطيني يشعرون أنهم في الدرجة الثانية، في حين أن عشائر البدو لهم القيادة في الجيش والحكم ؛ بالرغم من

أن النشاط الاقتصادي لمملكتنا في أيدي الفلسطينيين..، لقد أطرق الملك مفكرًا..، وأرى أن هذه سياسة المملكة دائمًا "

***

أخبار متفرقة من القطاع :

"عرفات يفرج عن كل معتقلي حماس والجهاد، دفعة واحدة، وشارون يتوعد هؤلاء الإرهابيين، وينذر عرفات "

"ابنة عرفات الوحيدة في طريقها إلى باريس للعلاج من السرطان "

في أسفل صور متعددة لمجلة خليجية عن أناقة حواء :

"السيدة سها عرفات تترجل من سيارتها ( مرسيدس حديثة ) "

"السيدة سها تزور مخيمات اللاجئيين "، "وتزور ضحايا القصف بطائرات إف ١٦ "

وعلى غلاف مجلة بيروتية : "لماذا عاد أو أعيد غوشة في هذا التوقيت ؟ "

***

في حديث صحافي لوزير الإعلام الأردني :

"السيد غوشة يمارس أنشطة تخالف الخط الرسمي للدولة، ويتحدث باسم منظمة غير وطنية، ولابد أن يتخلى تمامًا عن كل انتماء له لهذه المنظمة "

***

في بيته، وأمام التلفاز قال الأستاذ "كمال ":

- مرةً أخرى، نرى سياسة الأردنة مع غوشة.

قلتُ : الأسباب أكثر من ذلك.

- الأردنة أحد وجوهها.

***

ذهبتُ إليه في الجريدة، قال صديقي "حافظ "وهو ينظر فيما حملته وكالات الأنباء من أحبار متفرقة ليعيد صياغتها :

- مشكلة غوشة ومشعل ببساطة ظهرت حينما زار أحد وزراء خارجية إسرائيل الأردن سنة ١٩٩٩، وتحدث عن أعضاء حماس وغيرهم الذين يعيشون في عمان.
- لم أسمع عن ذلك ؟
- هذه تسريبات نقوم بحذفها عادة.
- هذا بعد وفاة الملك حسين ؟
- نعم، هذه مطالب قدموها للملك الشاب حتى يتثبت عرشه.
- لم أرَ له دورًا في إبعاد الثلاثي : غوشة ومشعل وأبي مرزوق.

قال "حافظ "بهدوء : كان ذلك في الصيف، وكان الملك الشاب يصيّف في النمسا، وكان الجو في عمّان ساخنًا.

***

"أعلن السيد غوشة قبوله السفر إلى أي دولة عربية تقبله "

ولأنني كنت متابعًا للمسألة، فإن الصمت من هذه الدول كان معتادًا لي.

طالعتُ خبرًا صغيرًا :

"الطائرة القطرية في مطار عمان ترحل، بدون ... "

***

ملامح الحل التوفيقي :

"وصل السيد غوشة إلى مطار بانكوك الدولي "

قلتُ لحافظ : بانكوك..، تايلاند معقولة !

قال : الغريب أن دلالة الرحيل المفاجئ ملطخة بعار.

وأردف : تايلاند دولة نصف دخلها من الدعارة، وخصوصًا دعارة الأطفال.

***

قبل أن أترجل من سيارتي في قيظ الظهيرة، وأغلق المذياع، سمعتُ : "السيد غوشة يعود إلى عمّان بعدما أعلن تخليه عن منصبه في المكتب الإعلامي لحماس "

قلتُ : تنازل منه غير محمود.

قال جاري الفلسطيني "حمدون "، الذي قابلته في المصعد :

- حتى بانكوك رفضت بقاءه، كانت مسألة ترانزيت، ولم يخرج من المطار.
- ولكنه تنازل..

قاطعني بضيق : نحن حاملو الوثيقة..، نستجدي الجنسية، أين كان سيعيش على سطح الكرة الأرضية ؟ حتى الخليج يمتلئ بالأساطيل.

***

قال الأستاذ كمال :

- أشم رائحة العيون الزرقاء في هذا الحل.

تساءلتُ : كيف ؟

- بعد أيلول الأسود نقلوا عرفات إلى بيروت، وبعد خروجه من بيروت نقلوه إلى تونس، والسيناريو يتكرر مع غوشة بمعطيات جديدة.

قلتُ : لأن حماس لها ناب.

أحنى رأسه، وغرق كعادته في الجريدة اليومية المحلية.

***

خبر متكرر :

"طائرات التحالف تقصف العراق من قواعدها بقطر وتركيا "

***

تسريبات صحفية شفهية من "حافظ ":

- رجال السلطة الوطنية في غزة يرحّلون عائلاتهم إلى العواصم الأوروبية لقضاء عطلة الصيف، ومعهم ما يحتفظون به من أموال في داخل القطاع، حتى تنتهي الانتفاضة أو حتى يلحق الرجال بالنساء إذا لم تنتهِ.

## ( ٩ )

الزمن : صبيحة يوم في أواخر عام ١٩٩٥ :

جلس في الحافلة التي كانت تقلُّ عددًا من طلاب المدارس التوراتية، الذين كانوا في طريق عودتهم إلى بيوتهم، جلس فاتحًا العهد القديم وهو يحرّك رأسه وجسده صعودًا وهبوطًا، يترنم في قراءته ويبكي. عدّل من وضع طاقيته البيضاء التي احتلت وسط رأسه، نظر خلفه، كان شابٌ يرتدي الملابس السوداء، ويغرق في ترنيماته بصوت خفيض، خاطبه بالعبرية :

- سأنزل في المحطة القادمة، أراك غدًا في المعبد.

اكتفى الشاب بإحناءة رأسه، بينما استأذن الأول للنزول، وراح يسير متسندًا على عكاز صغير، بينما سائق الحافلة وباقي الطلاب ينظرون إليه في حب.

حياهم بيده، وتلفّت حوله، كانت مقاعد محطة الحافلات فارغة. من نافذة الحافلة تطلع الشاب الذي كان يجلس خلفه، كان الحاخام العجوز يشير إليه مودعًا.

واصلت الحافلة سيرها، فتح الشاب الذي كان يجلس خلف الأول قميصه، ترنم بأدعية بالعربية، تحرّك واقفًا وسط الحافلة، تعلّقت العيون به، هزّ جسده، فقال أحد الجالسين لمن كان بجواره :

- كيف يرقص هذا الشاب وهو طالب توراتي ؟

ضغط الشاب على زر في بطنه.

بعدها، وصف المارة الحافلة بأنها استحالت إلى هيكل معدني تضيئه النيران.

ألقى السائق بنفسه أرضًا، وقال في التحقيقات وهو يرتجف :

- ... أنزلت أحد الحاخامات في محطة "اللد "، ثم وقف شاب، رقص، ولم أكن أعرف أنه يرقص رقصة الموت.

***

كزّ وزير الداخلية أسنان فكه الأعلى مع فكه الأسفل وهو يدلي بتصريحات للصحفيين المتجمعين أمام مبنى مجلس الوزراء، قبل أن يدحل ليشارك في الاجتماع المقرر :

– هذه العملية كان مخططها راكبًا أمام الشاب الذي فجّر نفسه، ثم نزل في محطة اللد، لينفجر بعدها الباص، مخططها هو "عياش"، كلب إرهابي يكره اليهود.

وفي اجتماع مجلس الوزراء، قال إسحق رابين بحنق :

- خسرنا عشرين قتيلاً بسبب "عياش ". ألا توجد طريقة للقضاء عليه ؟

ردّ "شيمون بيريز "بتؤدة : هذا صعب، فهو شخص يجيد العبرية تمامًا،ويحفظ إسرائيل شارعًا شارعًا، وقد يكون يتلكأ أمام مجلس الوزراء الآن.

أطلّ سكرتير الاجتماع في النافذة بعينين زائغتين. قال بيريز :

- يا أبله، هذا مجرد مثال.

إسحق رابين : حاولوا عن طريق أحد العملاء، ابحثوا في جيرانه.

ثم التفت إلى وزير الداخلية : ألم تقل لي أن أهله من عرب إسرائيل، وأنه متزوج ولديه طفلان، كيف أنجبهما وهو هارب ؟

وزير الداخلية : لقد فعلنا كل شيء مع أهله، ولكن رأينا أن من الأفضل أن نراقبهم فلابد أنهم على اتصال به.

***

عند معبر "أرينز "بين قطاع غزة والخط الأخضر في إسرائيل، وقفت سيارة من طراز "بيجو ٥٠٥ "، وبها سيدة عجوز، وأخرى شابة ومعهما طفلان.

تبادلت العجوز كلمات باللغة العبرية مع الجنود اليهود، ثم أبرزت إيصالاً مع بطاقتها وبطاقة الشابة والطفلين، فتح الجندي بوابة المعبر، فتخطتها السيارة.

وإلى قلب قطاع غزة، وقفت السيارة أمام عدة محلات تبيع الأقمشة والبقالة، نزلت العجوز والشابة والطفلان، ثم عادوا بعد قليل وركبوا السيارة.

***

في داخل محل الأقمشة، وقف صاحبه **"أبو نذير** "مرحبًا بالعجوز :

- أهلاً يا بنت عمي، كيف حالك ؟ وكيف حال أبي العيال ؟
- بخير يا أبا نذير. "إيش "أخبار القماش عندك ؟
- عندنا قماش جديد عال العال، ولكنه في المخازن، لو تصبرين لباكر.
- ما في وقت يا أبا نذير.
- إذن، ما باليد حيلة، ادخلي وقلّبي في المخازن بنفسك.

قالت الشابة : خذيني معك يا عمتي.

أفسح أبونذير لهم الطريق، فدخلوا. وفي داخل المخزن كان هناك باب يفتح إلى سلم لأعلى، ارتقته العجوز والشابة والطفلان، بينما خرجت

عجوز وشابة وطفلان يلبسان نفس الملابس ولهم نفس الملامح، وقالت العجوز الثانية لأبي نذير :

- قماش حلو وألوانه حلوة، اقطع لي خمسة أمتار من اللون الأزرق وخمسة من اللون البرتقالي.
- على رأسي ومن عيوني.

أخذت العجوز لفة القماش ثم خرجت مع الشابة والطفلين وركبوا سيارة الـ "بيجو ٥٠٥ "التي انطلقت بهم إلى أقاربهم في إحدى قرى غزة، كما هو مقرر في تصريح الزيارة الذي قدموه عند معبر "أريز ".

***

احتضن "عياش "طفليه، وتطلع لزوجته التي أطرقت في خجل، بينما أسرعت العجوز معانقة ولدها، قائلة :

- كل أهلنا يفتخرون بك يا ولدي.

قال وهو يضاحك الطفلين : هل تعبتم في الوصول ؟

الزوجة : أبدًا، خالتك أم أحمد وابنتها واثنان من عيالها بقوا مكاننا في البيت، وأصحابك عملوا لهم مكياجًا فصاروا شبهنا.

الأم : التصريح الذي معنا باسم جارتنا أم مروان، أنت تعرف ولدها.

تعجب "عياش "من الاسم، فأردفت زوجته :

- رجل طيب وصالح.

عياش : نعم، كثيرًا ما ساعدنا في عملياتنا.

أكملت الأم : نحن لم نوافق على تأشيرته إلا بعد أن وافق الأخوة من جماعتك وأعطونا إشارة أنهم موافقون.

دلفت الأم إلى إحدى الغرف لتبدل ثيابها، ورفعت صوتها قائلة :

- أحضرنا معنا اللحم والخضار يا يحيي.

***

طرق الباب عليه ليلاً، ففتح "مروان "، دحل الطارق بسرعة وأغلق الباب من خلفه وقال :

- هل تعرفني يا مروان ؟

تفرس الأخير في وجهه بعينين حملتْ شقاء البطالة، وقال :

– نعم، أنتَ "خليل مناع "، خيرًا ؟

- أخبار الشغل معك ؟

- قطران.

- ما رأيك في مئة ألف شيكل ؟

انتبه "مروان "على الرقم وهتف : كلام وراءه شر.

ابتسم "خليل ": وممكن تأخذ أكثر وأكثر.

- والمطلوب مني ؟

- أبدًا، هدية بسيطة تذهب بها إلى جارك الغالي عليكم.

ارتجف "مروان "وتساءل بغباء : من تقصد ؟ الشباب كثيرون.

- أنت تعرفه، والمبلغ سيتضاعف كما تحب.

وألقى أمامه بخمسمئة "شيكل "، وهو يبتسم.

***

يومان وعاد "خليل مناع "، قال :

- مروان أنت بلا شغل، وما أعرضه عليك فرصة عمرك كله.

مروان يضغط على رأسه بيديه :

- الناس سيقطعونني بأسنانهم.
- معنا لا توجد مشكلة، سنعطيك جواز سفر.
- أنا فكرت كثيرًا والمطلوب : جواز سفر غير إسرائيلي، ومليون دولار، وفيزا خضراء لأي بلد.

فتح "خليل "فمه دهشة :إذن، أنت مرتب كل شيء في دماغك.

***

بعد أسبوع، طرقات خفيفة على الباب ليلاً، فتح "مروان "، وجد رسالة معلقة عليها : "قابلني عند تل الرحمانية بعد ساعة ".

***

جلس "مروان "على الرمال الكابية اللون، غاصت أصابعه فيها فامتلأت بالماء بفعل بقايا المطر التي هطلت على التل، ظهر "خليل "ومعه آخر. قال خليل :

- لقد فكروا في طلباتك.

ونظر إلى من معه، فقال الأخير بعربية لها لكنة غربية :

- أنا "أبو داوود "من الشين فين، نحن عرفنا طلباتك، وفهمناها، وكما تريد : مليون دولار، وجواز سفر، وتأشيرة.

مروان : من الآن، نتحدث في المطلوب بالضبط.

***

تناول "عياش "الهاتف المحمول متعجبًا :

- أشكرك يا مروان.

- تستطيع أن تتحدث مع من تريد، الشبكة مربوطة مع إسرائيل، ولن يشك أحد في رقمك، فتتصل بأهلك وبالخارج وهم يتصلون بك.

أمسك "مروان "بالهاتف وراح يطلب رقم صديق له في مدينة "الخليل "، وعلى الفور كان الآخر يرد عليه، اقترب عياش من مروان يتسمع في تعجب.

***

انقطاع الإرسال التلفازي فجأة على مختلف المحطات :

" أفادت الأنباء الأولية أن "إسحق رابين "رئيس وزراء إسرائيل قد تعرض لمحاولة اغتيال أثناء حضوره في أحد الاحتفالات "

في النشرات المتتالية :

"إسرائيل تؤكد أن قاتل رابين هو أحد اليهود المتدينين، وقد استسلم للشرطة، مؤكدًا أنه خدم الرب بما فعله ؛ لأن رابين كان سببًا في تسليم أراض من إسرائيل إلى عرفات ومن معه، بعد اتفاقات أوسلو "

وأوردت الصحافة بعدها بفترة :

"شيمون بيريز يتولى رئاسة الحكومة خلفًا لرابين "

و"إيجال عمير "قاتل رابين تتجه نية المحكمة بأن تمنحه سجنًا مؤبدًا، دون الإعدام، لأنه كان مدفوعًا بحب وطنه عندما ارتكب جريمته "

***

ارتفعت طائرة عامودية فوق قطاع غزة، طارت حتى تمركزت فوق محل "أبي نذير "، ثم عاودت الطيران، كان صوتها مكتومًا.

أخرج "عياش "الهاتف ليتحدث مع أحد أصدقائه داخل الخط الأخضر، الموجات تلتقطها الطائرة، ضغط الأرقام، رنين كالمعتاد في الجانب الآخر، وضع الهاتف على أذنيه، وراح يلقي التحية ويتكلم ...، تناثر الهاتف.

***

أخمد "أبو نذير "النيران في محله، وفي السكن الذي كان يشغله "عياش"، تأمل ومن معه رأس "عياش "النحيل : تفتت الجمجمة واختفاء معالم الوجه، بينما تمدد الجسد في استكانة.

قبل تكفينه، أصرّ أحد أحد أتباعه على أن توزن الجثة، علقوا فيها الأربطة، وأبان الميزان المعلق أن وزنه : ستون كيلو جرام.

***

سئل شيمون بيريز :

- تتهمكم حركة حماس بأنكم وراء مقتل "يحيي عياش ".

يرد : لا علم لنا بذلك، إن قتله كان بسبب خلافات في داخل تنظيمه.

***

قال مروان لخليل مناع وهو يأخذ جواز السفر ويتطلع فيه :

- ممتاز، جنسية استرالية، وتأشيرة دحول لكندا، واسم جديد، ومليون دولار.
- هذه الأشياء كافية للبدء في حياة نظيفة جديدة.

***

في تل أبيب وفي القدس الغربية، وفي توقيت واحد، كان هناك شابان يلبسان ملابس الحاخامات، ويهز كل واحد منهما وسطه في محطة للباصات.

وبعدها بيومين، هز حاخام آخر وسطه في تل أبيب وهو يركب أحد الباصات.

عناوين الصحف الإسرائيلية :"رقصة الموت لم تمت ".

في تعليق إذاعي :

"بلغت حصيلة القتلي من الإسرائليين ستين قتيلاً، ومئتي جريح في خلال يومين اثنين "

في تعليق لصحيفة "النيوزويك "الأمريكية :

"هل يندم "بيريز "على القرار الذي اتخذه باغتيال المهندس يحيي عياش، بعدما أكدت كل استطلاعات الرأي في إسرائيل أن بنيامين نتنياهو فرصته في الفوز أكثر من فرصة بيريز، وخصوصًا أن كل كيلو جرام من جسد عياش دفع إسرائيلي ثمنه ؟ "

***

تأملت الحشد الكبير الذي تجمع في قمة شرم الشيخ في صورة جماعية :

كلينتون وعرفات ويلتسين وبيريز وجون ميجور وشيراك والملك حسين والملك الحسن الثاني و ... و... أطلت غترة خليجية حمراء اللون تقف في الناحية اليسرى.

## ( ١٠ )

أقفر قيظ شمس الحليج الشوارع الأسفلتية المارة من العمالة الوافدة. خيوط الشمس تلتمع على هياكل السيارات التي تمرق، والهواء البارد المنبعث من مكيفات السيارات يقتصر على من بداخلها. الشفاه تبتسم وهي تصب كلماتها في الهواتف المحمولة، والنسمات الباردة المصنوعة تحرّك خصلات شعر الرأس أسفل الغترة والعقال.

هي : في سيارتها "الرولز رويس "بلونها الفضي، الذي تشبع بخيوط الشمس الحارقة، فاقترب من اللون الذهبي. السيارة تنطلق في الحارة اليسرى من الطريق السريع، ثم تنحرف إلى أحد الطرق الفرعية.

هو : بسيارته "الشيفروليه "الأمريكية السوداء يتتبعها، أطفأ هاتفه المحمول، عيناه على اللون الفضي المذهب، ينحرف وراءه في الطريق الفرعي.

الإشارة الحمراء، وكالعادة، كانت سيارتها في أقصى يسار الطريق، لون النظارة الشمسية الأزرق يجعلها تتأمل دنيانا من حولها بضيق. يتداخل صوت مذيع نشرة الواحدة ظهرًا، مع أصوات دندنتها بأغنية "عبد الله الرويشد "الأخيرة، كلمات متناثرة من المذياع :

- طائرات التحالف تقصف جنوب العراق.
- فيصل الحسيني يصل الكويت، للمشاركة في مؤتمر مناهضة التطبيع.
- تقرير إسرائيلي يؤكّد أن مُحَمَّد الدرة قتل بسبب وقوعه في مرمى نيران الفلسطينيين، وأن الفلسطينيين هم الذين قتلوه حتى يجدوا مسوغًا لادعاء المسكنة أمام العالم.

السيارة السوداء تجاورها، ثم تتخطاها بتمهل. نفخت السيدة بقرف وهي تطالع تلك الشيفروليه الضخمة التي تتعمد أن تقف أمام سيارتها، بشكل مائل في الطريق، ضغطت على آلة النفخ، كان صوتها حادًا، استدعى فضول الأعين من باقي السيارات في الشارع

تمتمت : "اللون الأسود يزيدني كآبة في هذا القيظ "

نزل من سيارته، رتّب من وضع غترته وعقاله، كان جلبابه الفاتح اللون يعكس الأشعة المتعامدة، اتجه نحو سيارتها، تمتمت ثانية :

- هل أزعجه صوت "الهورن "؟ إنه مخطئ في وقفته بهذا الشكل أمامي.

تأملته، وهمست : يبدو أنه من إحدى قبائل البدو، لون وجهه كسيارته.

ملأ بجسده الضخم زجاج الباب الذي يجاورها. نظرتها بتعالٍ إليه، ونظرته مفعمة بالحنق، وملامح وجهه متجمدة بجهامة.

يده تخرج من جلبابه، طلقات حادة الصوت.

الإشارة خضراء، ثم باللون البرتقالي، ثم حمراء، الوجوه المتجمعة تنظر بذهول لتلك الدماء المنثالة. حصى الأسفلت السوداء تبتلع قطرات الدم. أسرع أحدهم بإحضار الجريدة اليومية المحلية، غطّى جسدها، بينما رقم الشرطة الموحد يستقبل مكالمات متشابهة الكلمات والإيقاع.

عاد وجلس في سيارته بهدوء، أغلق باب سيارته، متنسمًا نسمات التكييف، كانوا يحيطون به في داخل وخارج السيارة.

***

عناوين الصحافة المحلية :

"مقتل "فوزية السلطان "صاحبة ورئيسة تحرير مجلة النجوم "

"تزوجت من المرحوم الشيخ مبارك العبد الله، وصارت عضوة ضمن الأسرة الحاكمة، بالرغم من أنها ليست من الشيخات، إلا أنها نالت اللقب بأمر زوجها "

"عمرها الحقيقي كما ذكرت الشرطة حمس وستون سنة "

"القاتل من قبيلة "الجميعي "أكبر قبائل البلاد "

"القاتل يعمل رائدًا في الشرطة "

***

في التحقيقات الأولية، قال :

"لقد كتبتْ مقالاً في حق قبيلتي، وقالت فيه إننا من بدو السعودية الوافدين إلى هذه البلاد، وأننا لسنا متحدرين على رملها "

"نعم، عرفتُ أنها اعتذرت في العدد التالي، ولكن أصبح كل واحد يكتب مقالاً ويسبنا ثم يعتذر، وتمر الأمور بسلام، وكأنه لم يقل شيئًا ؟ "

"كما أسمع عنها أنها متعالية ومتكبرة، وترى نفسها فوق الجميع، فأردتُ أن أؤدبها"

"بالفعل، هو مسدسي الحكومي، وطلقاته ملك الحكومة "

"راقبتها أسبوعًا، وأردت أن تكون ميتتها بفضيحة "

"نعم، مستعد لتمثيل الحادث "

حين خرج من مكتب رئيس المباحث، ومنه إلى السيارة المصفحة خارج مبنى وزارة الداخلية ، كانت المئات تحييه، رفع عقاله لهم ضاحكًا، بينما تعلق ابنه الصغير بطرف جلبابه، وهو يصرخ :

- أبي، أمانـة..، لازم تجـيء معنـا، أمـي وإخـواني قاعـدون في السـيارة "السوبربان ".

قبّل ابنه، اقترب منه شقيقه معانقًا، وهمس له :

- لن نتركك أبدًا.

***

نفس المشهد الأول : ترجل من سيارته، رابط الجأش، همس وهو يخرج مسدسه :

- يا بنت الـ...

ضغط على الزناد ثلاث مرات، اغتاظ لعدم وجود طلقات.

كانت كاميرات فيديو تصوّره.

***

في مجلس العزاء، بديوانية عائلة "السلطان "، سفراء وقضاة وأمراء وشيوخ، كان ابنها البكر متماسكًا وهو يسلّم على شيخ قبيلة الجميعي الذي يتوكأ على عصاه، ويتمتم بكلمات الواجب، وتتابع من خلفه نواب البرلمان من القبيلة.

يتبقى بالمجلس عدد محدود، يغلقون باب الديوانية، كانت آلاف السيارات تصطف في الخارج، وقد تجمهر أصحابها.

قال شيخ القبيلة :

- لم يكن ولدنا في وعيه وهو يفعل..

قال أحد النواب : المعروف عنه أنه عصبي.

وقال آخر : غيرته على سمعة القبيلة أشعلت المسألة في صدره.

وقال أمير قدِمَ للوساطة من إحدى دول الخليج :

- الموضوع ليس ثأرًا، بل هو فورة غضب.

قال الابن : وماذا تريدون ؟

شيخ القبيلة : الصلح، والصلح خير.

الابن : والناحية القانونية، وسمعتنا ؟

أحد الشيوخ : هذه نتكفّل بها، ونقول إنه كان في غير وعيه.

الابن : إذن تريدون الدية.

شيح القبيلة : خمسة ملايين دولار.

الابن وقد اكتست ملامحه بسخرية :

- وهل يملك ولدكم هذا المبلغ ؟

النائب البرلماني : – سنفرض على كل فرد في القبيلة نسبةً من راتبه أو دخله، وقبيلتنا كبيرة العدد.

الابن : المبلغ قليل.

شيخ القبيلة : نضاعفه، عشرة ملايين.

الابن واقفًا بسخرية : والله لو عرضتم علينا حقل نفط، ما نرضى أن يذهب دم أمنا هدرًا. ديتنا رقبة ولدكم.

***

قال "نواف الجميعي "محامي المتهم، في مجلس القبيلة :

- المشكلة أنه معترف، وقد صوروه، والقضية معقدة.

محامٍ آخر : نحتاج خدمات محامٍ من الخارج.

شيخ القبيلة : وهل هذا مخرج ؟

نائب برلماني : نحاول، والقانون له ثغراته، والثغرات تحتاج خبيرًا.

***

في القاهرة، وفي شارع ٢٦ يوليو في وسط المدينة، وفد من القبيلة اتخذوا مقاعدهم أمامه، قال "منير الدهشوري "، وهو ينظر في ساعة معلقة :

- قبل أي كلام، خمسون ألف دولار مقابل تصفحي -بدايةً – ملف القضية.

قالوا : موافقون، ولو طلبت مليون دولار.

ضحك وقال : أتعابي نصف مليون دولار لو نفذ من حكم الإعدام، ومليون دولار لو حصل على حكم مخفف، سنتين أو ثلاثة.

صمتوا، استأذن واحد منهم إلى خارج الغرفة، دقائق، وعاد وهو يضع هاتفه المحمول في جيب جلبابه قائلاً :

- موافقون.

***

في جناح بفندق "شيراتون "على شاطئ الخليج، قال "الدهشوري ":

- لقد درست القضية، والحل يبدأ بأن ينكر كل ما قاله، أمام الشرطة حينما يتم عرضه أمام النيابة، ويقول أن هذا الاعتراف تم بسبب الإكراه من رجال الشرطة.
- ولماذا يغصبه رجال الشرطة على الاعتراف ؟
- لأنها محسوبة على الأسرة الحاكمة.
- لقد صوروه، وهناك شهود.
- هو الذي فعل الجريمة، ولكن في غير وعيه.

- كيف ؟
- هذه مهمتكم هنا، نحتاج شهادة طبيب نفساني تؤكّد على عصبيته وعدم تحكمه في أفعاله، وهذه سهلة.

***

قلتُ وأنا بديوانية صديقي "سليمان ":

- هل تظن أنه سينجو من المشنقة أو الحكم المؤبد ؟

قال وهو يتسند على المخدة الإسفنجية :

- المشكلة الآن صراع بين الأسرة الحاكمة وأكبر قبيلة في البلد.

تساءلتُ بحيرة : ورقبة صاحبنا.

قال بخبث : ستظل في مأمن، حتى يسووا الموضوع.

## ( ١١ )

الفيوم، شارع البحر، شاهدتهما، سويًا يسيران، تضع كفها في كوعه المنثني، صامتان، هو بجسده الممتلئ ومشيته التي تهز أكتافه صعودًا وهبوطًا، وهي بعودها النحيل، ووجهها الأبيض، بملامحها الهادئة. كنتُ راكبًا في ميكروباس الخدمة، تتبعتهما ببصري، السيارات المتسارعة تقطع صورتهما عني، هما صامتان، يتوقفان أمام الفترينات، أشعر بنظراتها الساهمة.

***

استرعاني صمتها الدائم، حينما كنا نتجمع في غرفة المدرسين، بالمدرسة الإعدادية، قفشات الأستاذ زغلول وهو يقلّد الطلاب، تعليقاتي، التعارك حول من يظفر بكوب شاي أولاً، حازم منزوٍ مع فنجان قهوته، أطالعها وأنا منشغل بتحضير حصص الغد، رنين الجرس، تتحرك الأرجل نحو فصولها، "الدادة "منشغلة بغسل الأكواب. كان لابد أن نتبادل النظر، ثم بعض الكلمات، قلتُ :

- أبله "نهلة "صحيح أنك تعملين هنا بالحصة مؤقتًا، ولستِ موظفة ؟

أحنت رأسها، بابتسامة، ارتبكت وهي توقّع بقلمها الأحمر على كراسة طالب. الصمت من جديد، جمّعتُ كلماتي، مستذكرًا الشهور الأولى من الجامعة.

- .. لماذا ؟

رفعتْ رأسها، عيوننا، خفضتُ بصري، همستْ ببطء.

- ظننتك تعلم أنني فلسطينية.

دهشتي، كنتُ أخشى أن أتحدث مع "زغلول "عنها، خشيتُ أن يظن ...

- لم أكن أعلم..، متى تخرجتِ ؟

الاحمرار بوجنتيها، تخفيه باقتضاب ابتسامة.

- سنة ١٩٩٠.

هي تكبرني بعام، مسافة في داخلي. سألتها :

- وأين كنتِ تعملين طيلة السنوات الثلاث السابقة ؟

- في ليبيا، أقمتُ عند أحي وزوجته ...، كنتُ أعمل مدرسة في الوزارة.

المسافة تتسع، طالعتُ الذهب في رسغيها، هل هو الانجذاب المعتاد بين الجنسين إذا اجتمعا أم أن أعماقي تتوق لها ؟ إنني مبتعد عنهن منذ سنوات.

***

الصباح الباكر، قدمتْ حاملة لفة دائرية، ولجتْ معمل العلوم، قالتْ :

- معي صينية كيك.

تناولتُ قطعة من الطبق الصغير الذي وضعته أمامي، كان لابد من الكلمات.

- لهجتكِ مصرية.

قالت وهي تأكل نتفات بطرف السكين :

- أمي مصرية، وأبي فلسطيني، أمي من "المنصورة ".

- عرفات عاد إلى غزة وأريحا.

تصلّبت عينيها : وهل تريد أن نعود ؟ لا مكان لنا.

- أقصد أنه من الممكن يومًا..

تقاطعني بحماس : منظمة التحرير لا تفكّر فينا، وأمريكا واليهود..

- وأين يعمل والدك ؟
- موظف في مديرية التربية والتعليم.

كان لابد أن تردف، حتى توضّح السبب :

- لأنه من المهاجرين قبل ١٩٦٧، الحكومة هنا عينتهم في وظائف، أما نحن فتكفينا سنوات التعليم وشهادة الورق..

نبرة شجن، أسى بملامحها، غضضتُ بصري بسرعة. أردفتْ :

- كانت الحكومة المصرية تسمح لمن كانت أمه مصرية أن يواصل التعليم الجامعي كأي مصري. وأنا في السنة الرابعة، قررت الحكومة أن نتحمل تكاليف التعليم مثل الطلاب الأجانب..
- كم ؟
- ألف جنيه استرليني في السنة. لي قريبة من جهة أبي منعها أبوها من الدراسة وهي في كلية الطب، وأنا دخلت امتحان آخر السنة بجواز السفر، سحبت الكلية الكارنيه مني، وأعطونا مهلة لكي ندفع المصاريف، وتحملها أخي الذي يعمل في ليبيا.

كانت تسترسل بتدفق، شخصية تختلف عن هيئتها. قلتُ :

- لماذا سافرتِ لليبيا ؟
- كانت ظروفنا صعبة، وعندما وصلت هناك، واستلمت عملي كمدرسة ابتدائي، اشتقتُ لمصر..، مرضت، كنتُ أتحامل وأروح المدرسة، وإذا رجعت أظل نائمة طوال اليوم، أخي كان يخدمني بنفسه.
- هل عاد أخوكِ ؟

- انتهتْ إقامته في مصر، ولم يجددها، وفاتت المدة. نعرف أخباره بالتليفون.

تعجبتُ : كيف تنتهي إقامته ؟

- نحن مثل الأجانب، لنا إقامة تتجدد،ولأني بنت ؛ إقامتي مع أمي مادمتُ لم..

سكتت ؛ حياؤها ...، أكملتُ الكلمة في نفسي "لم أتزوج ". فوجئت بها تكمل الحوار، رغم أنني اعتدت على توقفه دائمًا عند كلمات بعينها.

- كنتُ هناك، عندما طردوا عمي "غسان " وامرأته وعياله الخمسة، والسفر بالطيران ممنوع بسبب الحصار، وكان البرد شديدًا، ذهب أخي لهم على الحدود، كانوا في خيام، ومصر رفضت أن يعبروا..

قاطعتها : السفير الأمريكي هو الذي منعهم، وعرفات رفض استقبالهم.

- شفت الذل على وجوه كل الفلسطينيين هناك، كانوا ينتظرون أن يرحّلهم القذافي، وسمعته في خطاب يقول أنه يريد أن يعرف حقيقة الوطن الفلسطيني الذي أخذه عرفات، ظلوا شهورًا، حتى تدخلت أوروبا في المشكلة.

- المشكلة مركبة.

- "بابا "يكرر كل يوم : "كويس "أن عرفات طال أرضًا من اليهود.

طالعتُ عينيها : وأنتِ ما رأيكِ ؟

هتفتْ بحرقة : مشكلتي أن فلسطين..، "حاجة "هلامية في نفسي، "حاجة "أحبها بسبب كلام والدي ...، صدقني أنا لم أعد أميز وطنًا لي.. مصر أم..

شجنها شديد، دمعات بعينيها.

***

عند خروجنا من المدرسة، اقترب مني حازم :

– أريدك أن تجلس معي قليلاً..  ونفخ بضيق.

- تحت أمرك.

على العشب، وفي الحديقة المجاورة للسواقي، جلسنا، هتفتُ :

- خيرًا.. ما الحكاية ؟

- زوجتي..، تركت البيت منذ أسبوع.

قلّبت كفي في الهواء. قال :

- لا أعرف، هل كنت مخطئًا معها ؟ ألزمتها بالنقاب، رفضت، وأخذت الولد، وذهبت لأمها. أمها تكرهني.

- زوجتك مدرّسة، والنقاب ليس فرضًا.

- كنتُ قاسيًا عليها، زعقت في وجهها، أمام أمي.

ربّتُ على كتفه، أول مرة أراه منكسرًا. قلتُ مواسيًا :

- بسيطة..، أيام وستهدأ النفوس..، وأنتَ تنازل "شوية "، لا تحبّكها زيادة.

- حاولتُ أن أكلمها في التليفون، ردت أمها، وصرختْ فيّ بأنها لن ترجع، لأنني متطرف في نظرها..

وقفتُ، أمسكتُ بيده فتحامل عليها ووقف، سرنا في مماشي الحديقة، القمامة متناثرة في أرجائها، السواقي لا تكف عن الهدير. قلتُ :

- أتدخل وسيطًا بينكما.

- فكرتُ في ذلك، تحدثْ مع الأخت نهلة..

سكتَ، استغربتُ من طلبه، أكمل بتلعثم :

- لمحتها تتحدث معك بحرارة.
- حازم.. ليس بيني و بينها ...
- أعلم..، زوجتي صديقتها.

***

كانت في معمل العلوم، تعدّ بعض التجارب للأولاد، طرقتُ الباب الذي كان مواربًا، دلفتُ، ابتسمت، قلتُ :

- هناك مشكلة بين حازم وبين زوجته.

رفعتْ حاجبيها الكثيفين، تعمدتُ أن أنظر بعيدًا، أكملتُ :

- طلب مني أن تتوسطي بينهما.

أقبلتْ الدادة، ألقت السلام، رددتُه،كنتُ مرتبكًا، قالت نهلة :

- المشكلة ليست في النقاب، حازم كاره لشغلها، لا يريد أن تتكرر تجربة أمه.
- حازم ليس متزمتًا كما تظن أمها.
- "مراته "كانت معي البارحة، حزينة جدًا، كرهت عناده.
- حاولي أن تهدئي الموضوع.

أحنتْ رأسها، موضوع الزواج يخجلها، عدّلت من طرحتها وقالت :

- هل تعرف أنني أحببتُ أن ألبس النقاب ؟ لقد قلت لامرأة حازم هذا.

تعجبتُ، تبدو شديدة الأناقة، ولكنها لا تضع مساحيق. قلتُ :

- النقاب ليس موضة، وليس فرضًا.

- أكره الرجل الذي ينظر في وجهي ... أحس كأنه يأكلني.

كنتُ محنيًا رأسي أتلاعب بقلم جاف، واصلت كلماتها :

- هذا ما جعلني أتكلم معك.

***

ألحّت على فكري طيلة اليوم، لازلتُ في بداية حياتي، أنجذب لها.

قابلتُ "زغلول "في مكانه المفضل أمام دكان البقالة لزميلنا "مدحت "، ارتكنتُ على مقعد معه، قلت :

- بصراحة عاوز أسألك سؤالاً.

ابتسامته واسعة، وهو يسوي شعره السايح بأصابعه.

- لماذا لم تفكّر في الارتباط بنهلة ؟

ابتسامته لها مغزى، ردّ بسرعة : هل تعرضها عليّ ؟

نفيت برأسي، نطق لساني : مجرد هاجس.

- لقد تكلمتْ معي كثيرًا عندما جاءت للمدرسة، أنا وهي ندرّس مادة واحدة، والحوار مفتوح بالطبع. إسماعيل يا صاحبي، لقد تخطيت الخامسة والثلاثين، صحيح أنني سأحصل على شقة صغيرة من المجلس المحلي لبلدنا في عمارات تعاونيات الشباب، ولكنها عائدة من ليبيا، وهناك فرق مادي بيننا.

- فقط هذا ؟

- إسماعيل..، أشم رائحة انجذابك لها.

- لا.. لا...، مجرد خاطر والله..

- عمومًا، هي جريئة بالرغم من هدوئها، تحدثتْ معي عن انحراف بعض زميلاتها في ليبيا، بسبب غياب الرقابة، خجلتُ واحمرّ وجهي وهي تفتح معي موضوعًا مثل هذا

***

في غرفة المدرسين، ملتُ على حازم، كان مبتسمًا، استنتجتُ شيئًا، همستُ :

- هل "الأولاد "رجعوا إلى البيت ؟

هزّ رأسه بيأس، همست ثانية : لماذا تبتسم ؟!

رفع صوته، مشيرًا إلى حقيبته، وإلى لحيته الطويلة، قائلاً :

- ضباط أمن الدولة بالطبع الآن يعرفونني، ويعرفون أنني مسالم وجنب الحائط، وأنا عائد كل يوم أراهم يقفون عند مدخل شارع السنترال، أشوف الضابط يشير لي بأن أسير بعيدًا.
- ثم أما بعد ؟
- نعم، ثم أما بعد، وقفتُ البارحة قدام الضابط وقلت له : كل يوم تشير لي، ماذا تقصد ؟ تخيلوا ماذا قال لي.

لم نرد، التشوق في أعيننا.

- قال : هذه الشنطة ماذا فيها ؟ فتحتها له، وقلتُ : هذا جهاز المسجل وشرائط الكاسيت لتعليم الأولاد، فقال لي : أنا عارف أنك طيب، وكلما شفت الشنطة معك أظنك تفكر في عمل حاجة، فأشير لك من بعيد، يعني ارمها بعيدًا عنا، في أي مكان، المهم بعيدًا عن مجال شغلي، وهذا من باب النصيحة.

قلت : ضابط طيب.

حازم : وأكمل الضابط كلامه معي بأن الضباط الصغار مثله هم الذين يسقطون فيها في النهاية.

***

الفيوم، شارع البحر، شاهدتهما، سويًا يسيران، تضع كفها في كوعه المنثني، صامتان، هو بجسده الممتلئ ومشيته التي تهز أكتافه صعودًا وهبوطًا، وهي بعودها النحيل، ووجهها الأبيض، بملامحها الهادئة. كنتُ راكبًا في ميكروباس الخدمة، تتبعتهما ببصري، السيارات المتسارعة تقطع صورتهما عني، هما صامتان، يتوقفان أمام الفترينات، أشعر بنظراتها الساهمة.

***

نادي المحافظة، المرحلة الثانوية :

في غرفة المكتبة الضيقة، أجلس مع أمينة المكتبة، منكبًا على قصص إحسان عبد القدوس، أتلمس المرأة / الجسد، المرأة / الروح من الأسطر.

"حاتم "ذو شعر ناعم، يتطاير من مقدمة رأسه، وقميص مفتوح.

في حفلة نادي الطلائع، كان ممسكًا بطبلتين ملتصقتين، وضعهما بين ركبتيه مع بدء الحفل، البنات يلتففن حوله، يضاحكهن، يدندن بشفتيه : "إيه الطرح يا بنات، والسكر النبات "يرقصن، أراقبه، يكبرني بعامين عمرًا، وبخمسة أعوام جسمًا، البنات ترقص، تقترب إحداهن منه، يداعب شعرها خلسة، إنه يعرف المرأة، كيف لي أن ...؟

اقتربتُ من إحداهن، البنت "مروة "، كانت تصفّق بمرح، وقفتُ بجوارها، رائحة العشب المشرب بقطرات الماء تملأ أنفي، الضوء الأصفر المنبعث من

أضواء النادي المتناثرة يضعف بصري، صفقتُ بقوة، نظرت لي، "حاتم "يتحدث ويطبّل، ترددتُ، ملتُ أحدثها، الكلمات متقطعة، الحروف مبهمة، قلتُ :

- الحفلة حلوة..، و الأغنية حلوة ...

لم ترد، ألم تسمعني ؟، أكرر نفس الكلمات. تنظر لي، إلى ملابسي وشعري، تبتسم، وتعود للتصفيق، تشير لحاتم كي ترقص مع الراقصات، تدخل وسط الدائرة، عودها الممتلئ يتمايل بانسيابية، أصفق عاليًا، كانت عيناها ... مركزة عليه.

***

انتظرتها بعد الحفلة، سأفعل مثله، على باب النادي، الحارس ينظر لي، تحركتُ إلى الخارج، انتظرت في الشارع، خرجت مع بنات أخريات، ثبّتُ نظراتي، شعرتْ بها، ابتسمت بسخرية، سارت بتمهل.

***

في النادي، الكل يقبل عليه، في التمثيل والموسيقى والفنون الشعبية، ملابسه أنيقة، وها أنذا أجلس مع فرقة التمثيل، يؤدي دور البطولة، يرفع رأسه، يروح ويجيء على المسرح، صوته عالٍ، وأنا أجمع الكلمات، يجالس المخرج، كيف يتبادلان الحديث ؟ أقبلتْ فتاة، أعرف اسمها، "سهام "، تسلم باليد، لقد لمس "حاتم "نعومة كفها بأنامله، أستشعر رقتها تتسرب لأعماقي.

***

في ركن بالنادي، ليلاً،جلستُ معهم،شباب الطلائع، كانوا يتحدثون عنها، المرأة، حاتم بينهم، شعرتُ أنني غريب بينهم، فلأستمر في الجلوس، حاتم يصفق بيديه، يقول:

- البنت "مروة "..

بشدة يخفق قلبي، يكمل :

- هناك ( أشار بيده ) وراء مدرجات الملعب، مشت معي تضحك كلما قلتُ لها نكتة ثم كلمتين غرام وأمسكت يدها، وأخذت.. "بوسة ".

قبل النوم، المشهد وراء المدرجات يتماثل أمامي، أنا هو، تتردد أنفاسي، يدها الناعمة بيدي، أحدثها مثل الأفلام، أمسك يدها، أجذبها و...

تألمتُ لأنني تذكرت أنه قبّل "مروة "، حتى هذه أخذها مني.

***

في رحلة الطلائع إلى بحيرة "قارون "، كان مع شلته، يقتربون منه في الطول، انزويت مع من هم أصغر مني، في مؤخرة الحافلة، يغنون بمرح، وكالعادة، الطبلة بيده وصوته مرتفع، كان في مقدمة الحافلة، تشجعه المشرفة، تعطيه قطعة "بونبون "، يغني وهو يلوك الحلوى.

وصلنا إلى شاطئ البحيرة، يجلس معهن. إنه يسمع للأصوات الناعمة، ويسمعنه، يسير على الشاطئ مع "سهام "، أصابعه بأصابعها، يغرقان في الكلام الباسم.

***

جاء مندوب عن "الحزب الوطني "، وقف وسط الدائرة التي تكونت من أجسادنا، يتكلم بتدفق مثل هؤلاء الذين يظهرون في التلفزيون، يبتسمون دائمًا في صمتهم وحديثهم، قال :

- ستقوم أمانة الشباب بالحزب ...، بتكوين ناد للشباب المخلص المحب لوطنه، فيه رحلات وأنشطة، وسننتخب المميزين منكم لكي يذهبوا إلى دورات التثقيف السياسي، وستقابلون الوزراء.

سؤال من "سهام ":

- ممكن أن أشترك ؟

بنفس الابتسامة الملتصقة بوجهه :

– طبعًا، النادي للجنسين، والبنت الممتازة ستكون عضوة بأمانة المرأة بالحزب.

***

الأسكندرية، في معسكر "أبي قير "، ساحة منزرعة بالعشب وتحفها الخيام، عند وصولنا، كان مدير المعسكر في استقبالنا بالمطعم :

- لن أطيل عليكم، اليوم مبارة بين الأرجنتين وإنجلترا، وطبعًا "مارادونا "هو نجم النجوم. المهم يا شباب، أعرفكم بنفسي : طارق الميهوب، مدير المعسكر ومسؤول التثقيف السياسي.

أشار لمن معه، تتابعت الأسماء : مسؤول التغذية والمهمات والرياضة والنشاط الثقافي وكان يجلس بينهم ولد صغير، وقف وبصوت عال هتف :

- وائل طارق الميهوب..، شغلتي ابن المدير.

ضحك المدير، وأكثر في الضحك، انتقلت العدوى للجميع منه، اصطبغت القهقهة بصفار بيض العشاء الذي تجمع في زبد شفاهنا.

***

معسكر البنات يجاورنا في ساحة أخرى، ينامن بالليل هناك، ونراهن نهارًا ، يجلسن معنا ونحن ننفذ لوحات المجلات الثقافية، أطالع "حاتم "يتمشى مع إحداهن، بنظر إلينا من خلال نظارته الشمسية، أشعر أنه يستطيع أن يفعل أي شيء.

صفارة طويلة من المدير، تجمعنا في وسط الساحة، كان مرتديا شورتًا وفانلة وكابًا، قال من أسفل نظارته الشمسية :

- وزير الدولة للتنمية الإدارية، والأمين العام المساعد للحزب قادم غدًا، سيشاهد لوحاتكم وسيستمع إليكم، سننتخب بعض الشباب منكم ليتحدثوا معه ويسألوه.

***

كنا وقوفًا خارج قاعة المعرض، يمرّ الوزير ببدلته الزرقاء، فتيات جميلات في استقباله، يضحك معهن، حاتم يشرح له ما حوته المجلات المعلقة، نفس الابتسامة الملتصقة، الصحفيون وراءه بمسجلاتهم وعدساتهم.

أخذنا مقاعدنا في قاعة المطعم، الوزير وهو يرتشف العصير، يقول :

- ... الشباب عماد الوطن، أنتم سترثون مقاعدنا، وستقودون بلادكم، نحو الرخاء.

لمحت "حاتم "وآخرين وهم متفرقون في مقاعدهم بيننا، يقرؤون أوراقًا في أيديهم، يعلن طارق الميهوب عن فتح الحوار مع الشباب. بشكل مبرمج ترتفع أيديهم، وبشكل آلي مرتب يختار "طارق "بعضهم.

حاتم : نريد خدمة وطننا، افتحوا المجال كي نعلّم الجهلاء في فصول محو الأمية، لا نريد أي مال، نفدي وطننا بكل قطرة من دمنا.

الوزير : اقتراح جيد، سأرفعه إلى لجنة التعليم بالحزب، كي يجد طريقه نحو النور.

شاب آخر : نريد المساهمة في تسديد الديون، كيف ؟

شاب ثالث : لماذا لا تأخذون رسومًا على هذه المعسكرات المجانية ؟

شاب رابع : نقترح إنشاء جريدة يومية لشباب الحزب.

***

فرع الجامعة في الفيوم، كلية ...، بعد شهرين من دخولي في السنة الأولى، قرأتُ إعلانًا في زاوية قاصية في مبنى الكلية :

"ستبدأ الانتخابات بعد شهر من الآن، من أراد أن يرشّح نفسه فليتقدم إلى إدارة رعاية شباب الكلية.. "

تقدمتُ إلى الموظف، مع عدة زملاء لي، نظر لنا بتعجب :

- أنتم متحمسون كثيرًا..، لماذا ؟

قلتُ : لدينا أفكار نريد تطبيقها في الكلية.

- المهم ألا تكونوا من الجماعات الإسلامية أو الشباب الأحمر.

***

سهرنا في عمل اللوحات الانتخابية، مررنا على أصدقائنا، الكل يعدنا أن يعطينا أصواتهم عند الانتخاب، عددنا الطلاب الذين وعدونا، أيقنّا بالفوز، كنتُ قد شكلت قائمة بأسماء زملائي المرشحين،ووزعناها على الطلاب.

***

كان لابد أن نحضر حفل تنصيب الاتحاد الجديد، العميد ووكيل الكلية وموظفي رعاية الشباب يجلسون خلف طاولة أحد المدرجات. عدد الطلاب الحاضرين قليل، كنتُ مصرًا على أن أصرخ فيهم وأقول : "لماذا لم نفز وفاز غيرنا ؟ هل الإشاعات صحيحة عن تدخلات من..؟ وأبعدوا كل من خالفهم "

سكتُ أنا ومن معي عندما دحل قائد الحرس الجامعي ببدلته البيضاء اللون، يسير بخطى عسكرية، فتحدث نغمًا رتيبًا على أرضية المدرج الخشبية. جلس بجانب العميد على المنصّة، عملية انتخاب أمناء لجان الاتحاد : الثقافية والفنية والاجتماعية ...، تتم بصمت. رأيته يقف ويقترب من المنصة بعدما فاز بأمانة اللجنة الفنية، ثم يرفع كل أعضاء الاتحاد أيديهم مؤيدين له كي يكون رئيسًا لاتحاد الطلبة.

إنه "حاتم "، يلصق ابتسامة على وجهه، أمسك الميكروفون متحدثًا بتدفق عن رغبته في تطوير الحياة الجامعية والعمل الطلابي، ظننته يقرأ من ورقة.

***

السنون تتتابع :

ذهبتُ إلى مجلس المدينة، مع صديقي "زغلول "، كان يرغب في الحصول على شقة في مشروع إسكان الشباب.

يقف في مدخل المجلس، أمام قاعة المسرح، يتحدث بابتسامة جامدة مع بعض الموظفين، اقتربتُ منه، عرفني شكلاً، كان لابد أن أقدم له الكارت الذي حصلتُ عليه من "منير عزام "عضو مجلس الشعب، كان موجهًا إليه، إلى "حاتم بيه "، أمين تنظيم الشباب بالحزب ...، وأمين لجنة الشباب بالمجلس المحلي، نفس الابتسامة وهو يسلم بآلية على "زغلول "، الذي قال له :

- عمري خمسة وثلاثون عامًا، والشقة تقف في طريقي كي ...
- هي مشكلة كل الشباب، والحمد لله أنني اقترحت على مجلس المدينة تنفيذ مشروع إسكان تعاونيات الشباب بأقساط شهرية ميسرة.

***

الفيوم، شارع البحر، شاهدتهما، سويًا يسيران، تضع كفها في كوعه المنثني، صامتان، هو بجسده الممتلئ ومشيته التي تهز أكتافه صعودًا وهبوطًا، وهي بعودها النحيل، ووجهها الأبيض، بملامحها الهادئة. كنتُ راكبًا في ميكروباس الخدمة، تتبعتهما ببصري، السيارات المتسارعة تقطع صورتهما عني، هما صامتان، يتوقفان أمام الفترينات، أشعر بنظراتها الساهمة، "نهلة "و"حاتم ".

## ( ١٢ )

في شقته، وفي لقائنا الأسبوعي، قال الأستاذ "كمال ":

- هل تعرف يا إسماعيل أنني لم أعد أفرّق بين غربتي هنا في الخليج، وغربتي في مصر ؟

رفعتُ بصري عن الجريدة المحلية اليومية التي تأتيه كل صباح، كان ينظر عبر زجاج النافذة إلى الشارع، قطرات من مطر الشتاء متجمعة على الزجاج من الخارج، تساءلت في أعماقي فيما ينظر والضباب يصبغ كل شيء في الخارج بلونه القطني.

وجدته يكرر سؤاله، ظانًا أنني لم أسمع، لم أجد سوى عبارات معتادة أرددها :

- هذا شعور طبيعي منك، بعدما سافر أولادك إلى مصر ؛ إنهم الآن في الجامعات.
- ليتك فهمت قصدي.

***

كان لا يكف عن الصعود والنزول على سلالم بيت جدته، تصرخ فيه جدته بلهجتها الصعيدية وهي تجلس بالقرب من باب شقتها الموارب :

- ولد يا "كمال "، العب بأدب، "قبر يلمك ".

يسرع بغلق باب شقتها بعنف، ويندفع صاعدًا إلى شقة والدته، بينما صياح جدته يتردد صداه في جنبات مدار السلم.

تتلقاه أمه بضمة إلى صدرها، يهمس لها :

- هل أرسل "بابا جوابات "لنا.

تهز رأسها نفيًا، لقد حفظ تكرار السؤال، وحفظ طريقة هزها لرأسها.

***

"في منتصف الأربعينات، كان أبي قد حصل على منحة من الحكومة المصرية،وسافر إلى إنجلترا، كي يحصل على الماجستير في العلوم الاجتماعية، سنتان وحصل عليه، ثم سافر إلى نيويورك ليعمل في الأمم المتحدة، كانت منظمة اليونسكو في أواخر الأربعينات لاتزال في بدايتها، استمر في أمريكا ثلاث سنوات، ولولا قسم جدي عليه ما كان قد عاد، لم يكن – وقتها – قد أنجب سواي "

***

في المرحلة الثانوية، أفردت أمه غرفة له، وأخرى لأخواته البنات، ومعهن أخوه "عماد "الصغير ؛ يخشى أن ينام بمفرده.

يغرق في مكتبة والده، تلك الكتب التي تراكمت على الأرفف بفعل سنوات من نهم والده للقراءة، لا يرى أباه الآن إلا وهو غارق في الجرائد المحلية، بعدما يقوم من قيلولته اليومية، يظلّ يتصفحها، بينما والدته تجلس بجواره، تعطيه أخبار الأولاد، وهو يرد عليها ببعض التمتمات.

مع فلسفة "سارتر "، "كامي "،" إنني محور هذا الكون ، سلطة عقلي فوق كل هذه الدنيا ". يجلس أبوه في مكانه المعتاد فوق الكنبة الأسيوطي في غرفة الجلوس، وبجواره أمه تعدّ القهوة التي تفوح منها رائحة الزعفران. ينظر الوالد له بتؤدة :

- خيرًا يا كمال، إنك نجحت في الثانوية العامة، أي كلية ستدخل ؟

"كمال "وهو يرتشف كوب عصير : كلية العلوم.

- عجيبة، لماذا لا تختار كلية أخرى حتى تستفيد من موقعي كوكيل لوزارة الشباب ؟
- العلوم أم الفلسفة، أريد التخصص في الفلك.

***

سنوات الستينيات، جامعة القاهرة، ينشده إلى الشعارات التي تزيّن الحوائط، "عصرنا: حرية، اشتراكية، وحدة "، وشعارات أخرى :"المنهج العلمي سبيلنا للتقدم"، "فلتسقط الديماجوجية والغيبية، وليحي العقل "، ورق الملصقات بالرغم من صغره إلا أنه يتوزع على مباني الجامعة التي تذكره بشوارع وسط البلد في القاهرة، عبق عصور أوروبا الكلاسيكية.

رأته مرتكنًا عند إحدى الأشجار، أقبلت نحوه زميلته في "السيكشن "وقالتْ :

- كمال، فيما تقرأ ؟

التفت نحوها، جرأة لم يعتدْ عليها، عيونها سوداء واسعة، رد :

- مجلة المختار دايجست، الطبعة العربية.

ابتسمت، وأزاحت خصلات شعرها للخلف :

– هذه مجلة أمريكية، وهناك شائعات أنها من دسائس المخابرات الأمريكية.

قال بهدوء : سمعتُ هذا الكلام، ولكنني أحب المعلومات التي تقدمها، والعلم لا يعرف فلسفة ولا وطنًا.

ضحكتْ : يا عزيزي، إنها تروّج للنموذج الأمريكي.

قال بسخرية : أعتبره أنجح نموذج لدولة عصرية.

- كيلا أضيّع وقتك، لدينا اليوم ندوة في كلية الآداب، يحاضرنا فيها د. أنيس، في مدرج ( ٣ ) على يمين المدخل.

ناولته ورقة الدعوة، تساءل في نفسه : "لماذا أنا بالذات ".

***

اكتفى بالجلوس في آخر المدرج، أقبل د. أنيس، إنه أستاذ في الرياضيات، كلماته رصينة مركزة، عن أهمية المنهج العلمي في النهضة، ومتى ينتهي تسلط العقل الغيبي ؟ والفرد يغوص في المجموع، المجموع يذيب الذاتية لصالح حركة البروليتاريا.

"هل تتساقط هيمنة عقلي ؟ وتتلاشى مركزيتي في الكون تنزوي ؟ "

عقب المحاضرة، لمحها تحاور أحد الطلاب، أسرع إليها بعدما رآها تسير وحيدة :

–آنسة "أميمة ".. التفتت إليه.

- أهلاً كمال.

سار بجوارها، علاقته بالأخريات لا تعدو الزمالة، يرى "أميمة "مشتعلة بالحماس.

قال بصراحة : لماذا دعوتني أنا بالذات ؟

- أنا عضوة في اللجنة الثقافية، ورأيت أنك محب للقراءة، فأعطيتك دعوة.

"المسألة عادية إذن "، قالتْ :

- كمال، هل أعجبك كلام الدكتور أنيس ؟

لم يعرف إجابة، يشعر أنه سيتلاشى في الماديات وحركة الجماهير. قالت :

- أكلامًا جديدًا تسمعه لأول مرة ؟

- لا، قرأت عنه من قبل، ولكنه يضاد حرية الفرد.

يناديها أحد الطلاب، بصوت حاد، التفتت : أهلاً عصام..

عرفتهما ببعضهما بطريقة روتينية : كمال زميلي في الدفعة، عصام ثالثة آداب إنجليزي.

تطلع كمال إليه وهو يصافحه : ملامه منبسطة أسفل نظارة طبية، تختلف قسماته عن حدة صوته. توجه إليها عصام بلكنة شامية :

- بحثت عنكِ بعد المحاضرة..

- عندي "سيكشن "في الكلية الآن، فلابد أن ألحق به، بالمناسبة يا عصام، كمال لديه كلام عن محاضرة د. أنيس.

التفت "عصام "إليه، شعر "كمال "بالحرج، قالتْ :

- هل حركة البروليتاريا تقف ضد حرية الفرد ؟

عصام : أبدًا، ولكن حرية الفرد مقيدة بأهداف الجماهير.

كمال : الحرية معناها واسع، حرية العقل والجسد والمال والأفكار.

عصام : قد تصطدم بتقدم الجماهير، وفي هذه الحالة لابد من وضع أطر لها.

كمال : كلام نظري، والواقع في الاتحاد السوفيتي يكذبه.

عصام : الذين يقولون هذا لم يزوروا الاتحاد السوفيتي ، ويكفي أنه غزا الفضاء ويساند حركات التحرر..، لدينا ندوة في قهوة "إيزافيتش "غدًا، الساعة ٦ مساءً.

***

حلقة دائرية حول رجل ملتحٍ، استحضر "كمال "صورة "جيفارا "عندما رآه، يتحدث عن رأسمالية الدولة التي تقطف كفاح الشعب وحقوقه، دولتنا تحولت إلى جيش موظفين، ودخلت في أزمات البيروقراطية، الاشتراكية العلمية تعني الحرية بمعنى جديد، يقول للعيون الشابة المتلألئة : إن الحركة المؤطرة بأهداف تصنع ذاتًا فاعلة.

***

قال له والده : الاتحاد الاشتراكي سيكوّن مجموعة جديدة من الشباب..

- من الشباب الساذج ؟

استغرب والده : لا، من شباب الجامعات، منظمة الشباب هدفها صنع شباب بصياغة عصرية، أنا سجلت اسمك.

كمال : لا أرغب.

- لن تخسر شيئًا لو حضرت مرة.

***

في عطلة الصيف، ندوات تقتصر على مجموعة من متفوقي الجامعات، قال المحاضر بانطلاقة وعفوية، قلما تجدها الأذن في إعلام يسبح للقائد الملهم :

- هدفنا تقديم تجربة خاصة نابعة من ذاتيتنا تستلهم الاشتراكية وتعيد مجد العروبة وتعدّ شباب الغد، كل التجارب الاشتراكية في العالم اكتست بخصوصية لها، فأين نحن ؟ وأين قادتنا الذين سيصنعون هذه الخصوصية ؟

وقف كمال مقاطعًا : خصوصية عنوانها رأسمالية الدولة ؟

اتجهت الأنظار إليه، أحسّ أنه متميز، رد المحاضر بتؤدة :

- أبدًا، رأسمالية الدولة خطوة في طريق الاشتراكية الكبرى، وهي خطوة لابد منها، وإلا صارت الأمور فوضى مع شعب لم يتم إعداده اشتراكيًا بشكل سليم.
- وماذا عن سلطة الموظفين ؟
- تقصد طبقة التكنوقراط التي تتولى المواقع القيادية، لم نجد غيرها كي تتولى، وبالتالي لابد من إعداد قيادات تجمع بين مهارات التكنوقراط وخصوصية التكوين.

"انخرطتُ في معسكراتهم،شعرت أن ذاتي العربية تعود إليّ "

***

الرئيس يلقي خطاب تنحيه بعد هزيمة ١٩٦٧، تتهاوى ذات موصوفة بالكاريزما أمام أعين انطفأ بريقها، وأمام حلوق التي خرجت تهتف له أن يبقى فلا تعرف إلاهو، خرج "كمال "يهتف في الشوارع، "هل ستحافظ ذاتي على عليائها، كي أتغنى بها ؟ ".

***

١٩٦٩ تاريخ تخرجه بعد ست سنوات في الكلية، يلتحق كضابط احتياط في الجيش المصري، في "ميس الضباط "جلس يتحاور مع زميل له :

- تجربة الجيش، وبعد الهزيمة، جعلتني أكتشف ذاتًا جديدة في أعماقي.
- توقعتُ أن تقول غير ذلك !
- لماذا يا مختار ؟
- الرئيس الجديد قلب الطاولة، وأعاد ترتيب الأوراق.

هـزّ رأسـه بابتسـامة صـغيرة : أنا لا أتحـدث عـن الرئاسـة، أنا أعـني تلـك النفوس التي تذوّب نفسها من أجل الوطن.

- تقصد الوطنية والأرض.

طأطأ رأسه مصدقًا، فتساءل زميله :

- لم تكن الأرض كوطن غائبة عن أفكارنا أيام الجامعة.
- كانت غائبة عن ذاتي. لقد مات أحد الجنود اليوم بين يديّ، الروح على الجبهة لا تساوي الطلقة التي دخلت في أعماق الجسد وراحت تشوي بنيرانها الأحشاء.
- وما الروح ؟

أطرق كمال : لا أعلم، ولكنني أشعر بها بين جنياتي، وشعرتُ بها وهي تعلو حين استكن جسد العسكري بين يدي.

مختار : أنا أرى أن مصطلح الروح بلا معنى، الموت توقف لوظائف الأعضاء فقط.

***

" فخري بعد نصر ١٩٧٣، أحسستُ أنني أترك حرفة الكلام كي أصنع شيئًا على الأرض، الذات مفعمة بعبق الإرادة "

***

جاء تعيينه في مرصد حلوان، يعشق التلسكوب، ليغوص في النجوم المتلألئة في ظلمات الكون الفسيح، إنها تدور بلا نهاية، أين المحور الذي تدور حوله ؟ ومن أجله ؟ وأين نهاية تلك السماء التي تتوالد فيه السدوم والمجرات ؟

سؤال ماهية الروح يتردد في صدره، هل الروح نابعة من نفس محور الدوران السرمدي للكون ؟

تتخاتل أمام عينيه كلمات "مختار ": المادة تصنع التفكير.

***

هتف "كمال "باستغراب : عشرون سنة في المعتقل ؟ !

قال : في السجن الحربي، وما أدراك ما السجن الحربي !

استرسل "محمود الصباغ "في خواطره :

- في سنة ١٩٥٢ جاءني خطاب التعيين على مصلحة الأرصاد الجوية، ومنها انتقلتُ إلى مرصد، الوجوه تغيرت، كلكم شباب.

تساءل "كمال ": ما تهمة اعتقالك ؟

- الانتماء للإخوان المسلمين، عبد الناصر حارب كل التيارات السياسية.
- معقول !
- لقد زاملتُ فترة اعتقالي كل الألوان : يسار ويمين، حتى الجواسيس اليهود.

تردد نفسه وهو في عائد في "الأتوبيس "إلى منزله شعار "يا أخي ارفع رأسك ". انتبه على الغثيان في بطنه، كان عرق الواقفين يزكم أنفه.

***

- ألم تفكّر في تقديم اعتذار لعبد الناصر ؟

محمود الصباغ : اعتذار عن ماذا ؟

- عن خيانتك لفكر ثورة ومبادئها.

ابتسم الثاني وهو يقول : وهل كانت لها هوية عند قيامها ؟

تطلع "كمال "إليه : معالم الشيخوخة تتسارع في وجهه، وانحناءة ظهره تحمل بدايات النهاية، قال له "الصباغ ":

- لماذا تنظر لي هكذا ؟
- بصراحة، سؤال الموت يحيّرني.
- كيف ؟
- إنك تقترب من الفناء، هكذا يقول جسدك ...
- تقصد بالفناء الموت..

سكت "كمال "، فأكمل الثاني :

- الفناء يحمل في معناه التلاشي إلى العدم، وهل الروح بالفعل تذهب إلى العدم ؟

لا توجد فلسفة ستجيبك عن هذا السؤال إلا الدين، إنه يخبرنا بمصير الروح.

رنّت الكلمة في أعماقه، وعاد السؤال ملحًا على شفتيه :

- وما هي الروح ؟
- لا توجد إجابة عن كينونتها، ولكنني من خلال تأملي في فترات السجن، وجدتني أسبح في ثناياها، كنتُ أتطلع من طاقة الزنزانة كل ليلة، فأشعر أن روحي تتوحد في الكون، فعرفت أن الروح جزء من الكون..

هتف "كمال "بسرعة :

- جزء من المحور الذي يدور حوله ولأجله الكون. ولكن المادة ...

- المادة الوجه الآخر لأرواحنا، جسدي يستوعب روحي، ثم تتخلص منه بعدما يفنى الجسد.

***

وقف أمام باب سفارة ...، يملأ فراغات تعاقده كمدرس، رأته، ورآها، هتف :

- أميمة حمدي..
- كمال عبدالعال.

ارتسمت سنوات على وجهها الأسمر، قال :

- ماذا تفعلين هنا ؟
- نفس الذي جئت من أجله، لا مكان لي.
- كنتِ شعلة نشاط.
- تمزّق اليسار، واتهموني بالعمالة عندما ذهبت للعمل في مكتب صحفي لجريدة عربية تصدر في السعودية.
- هذا لا يجعلكِ تهاجرين ؟!
- انتفاضة ١٨، ١٩ يناير ساعدتني على اتخاذ القرار.

***

انتظرها في السيارة، حتى طالعها قادمة من بين الطالبات، ركبتْ بجواره السيارة وهي تقول : لماذا لا نتغذى في أي مطعم ؟

- تحت أمرك يا أميمة، ولكن هل حمل المراة في الخليج يفرض على صاحبته الغذاء في المطاعم، أمي زمان كانت تشتهي الفول النابت أو البلح أو الخروب ؟

- كمال، أي رفض لطلباتي سيؤثر على نفسية "النونو ".

***

وهما في المطعم، راح يقلّب صفحات الجريدة، توقف محملقًا :

- معقول زميلنا عصام..، هنا، ويرؤس الهيئة العربية لتحرير فلسطين.
- عصام حرفوش..
- سأحاول أن أتصل بالجريدة، لأعرف طريقة الوصول له.

***

قابله في ردهة الفندق، وضعتْ النادلة الفلبينية فناجين القهوة أمامهما، قال كمال :

- وما حكاية الهيئة العربية لتحرير فلسطين ؟
- منظمة كأي منظمة فلسطينية.
- حتى الآن أعرف عشر منظمة لتحرير فلسطين، ومنظمتك رقم ١١.
- هذه المنظمة تغطي الوجه العربي الغائب عن قضية فلسطين.
- يا سلام.. ! ولكنك كنتَ من أنصار "جورج حبش "ثم "نايف حواتمة "وكنت مؤمنًا بالاشتراكية العلمية كحل للقضية.
- قيادة "حبش "و"حواتمة "غير ديمقراطية، اختفلت معهما، وأسست هذه الجبهة.

ابتسم كمال : تحولتَ إلى أطروحات القوميين العرب، هذا كلام عظيم.

عصام : لا أحب نزعة الأممية بين عمال العالم، لنا خصوصيتنا العربية.

كمال ضاحكًا : بصراحة، ممن تحصل على الأموال ؟

سكت عصام، ابتسم : نتعاون مع مصر.

- هذه لا أصدقها، العرب قطعوا العلاقات مع مصر.
- ومصر تريد لها قدمًا في القضية الفلسطينية، مثلها مثل الآخرين.

***

نظرتُ للأستاذ كمال، وهو لا يزال يحملق في النافذة المعبقة بضباب الشتاء، قال :

- كنتُ أعتقد أن غربتي هنا لها يوم تنتهي فيه، ولكنني كلما سافرتُ إلى مصر أجد النفوس تتباعد، والقلوب منهمكة في الدنيا.

هتفتُ : هل سقطتْ الأيديولوجيات ؟

ضحك حتى بانت بقايا أسنانه الصفراء :

- لم تسقط الأفكار، بل سقطتْ النفوس.
- تقصد من شرخ الغزو العراقي ؟
- الشرخ في نفوسنا أقدم من الغزو، والشرخ لا يزال عميقًا.

انصرف إلى الجريدة اليومية المحلية، بينما كانت القهوة المحمصة بالزعفران تفور على نار موقد السبرتو، قال الأستاذ كمال وهو يصب القهوة في الفناجين :

- أعشق القهوة بالزعفران المشبعة برائحة السبرتو.

قلتُ : نفس الطقس الذي اعتاد عليه والدك من قبل.

حملق في وجهي، همس : عندما أنظر في المرآة صباح كل يوم، أرى نفس وجه أبي بشعره الشايب وتجاعيده.